نفحاتٌ روحيةٌ

كشف أسرار النفس البشرية

تأليف الشيخ يحيي رسلان العاملي

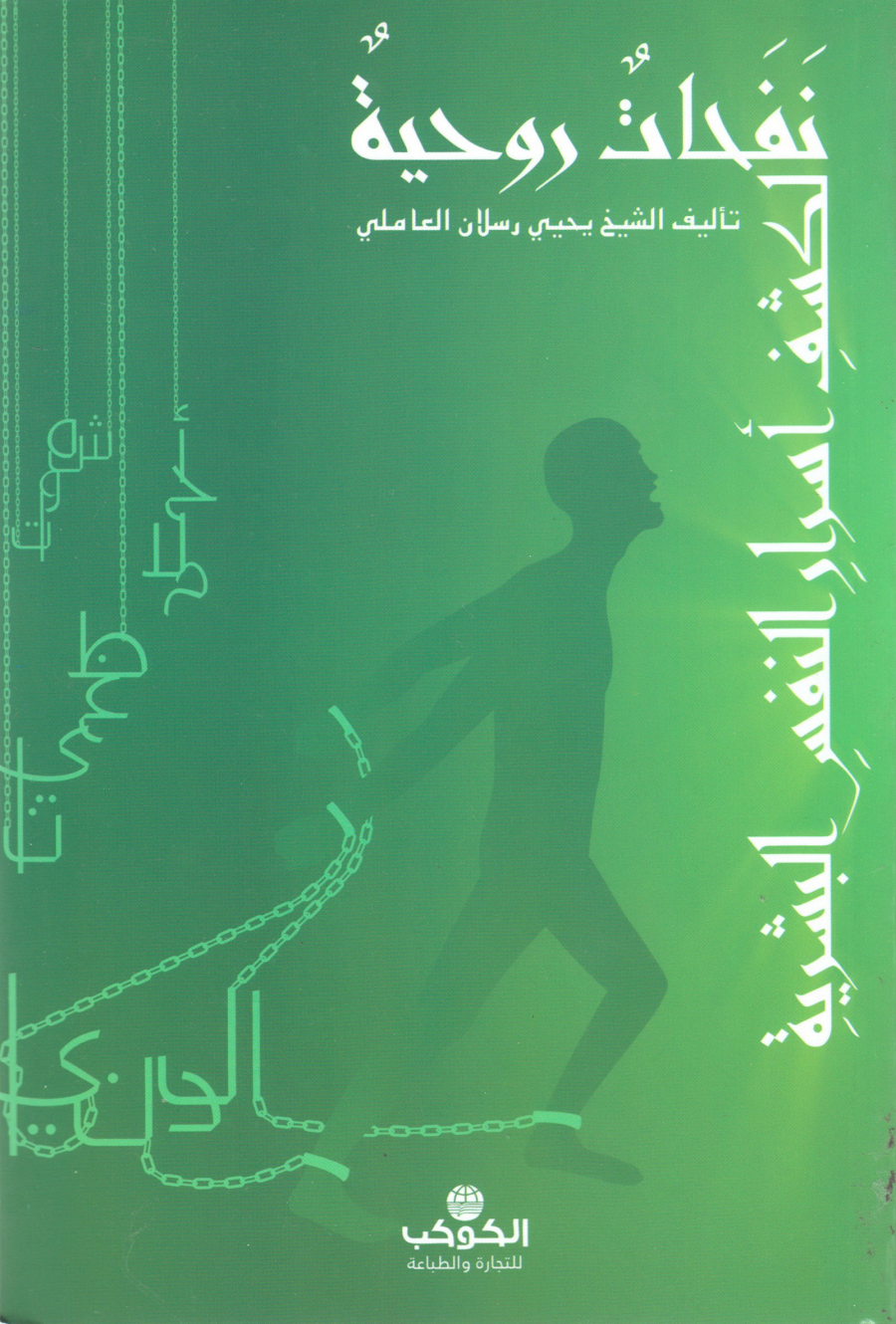

الكوكب
للتجارة والطباعة

نفحات روحية

لكشف أسرار النفس البشرية

تأليف

الشيخ يحيى رسلان العاملي

الكوكب
للتجارة والطباعة

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

التوزيع في العراق
النجف الأشرف - مكتبة حسن الطريحي - سوق الحويش

التوزيع في لبنان
دارالمحجة البيضاء
طباعة- نشر - توزيع
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

«اللهم يا من خص محمداً وآله بالكرامة، وحباهم بالرسالة وخصصهم بالوسيلة وجعلهم ورثة الأنبياء، وختم بهم الأوصياء والأئمة، وعلمهم علم ما كان وما بقي " وجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم " .

فصل على محمد وآله الطاهرين، وافعل بنا ما أنت أهله في الدين والدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير»[1].

١ـ الصحيفة السجادية: ص٤٣.

نفحات روحية

حارت بي الدنيا كيف اتقرب الى الله تعالى ونفسي تجُرُّني الى الخطايا والبعد عن الله، وقد خطر في بالي أن اسأل من يرشدني الى الطريق، فقصصت شيئاً مما يؤرقني الى أحد اصحابي وهو من أهل الصلاح، فأشار عليَّ بزيارة شيخٍ كبيرٍ يسكن في طرف القرية، وقال لي: إنّه يرشدك الى مبتغاك إن شاء الله فقد حل لي بعض الأمور العالقة في نفسي.

قصدت الشيخ، وعند وصولي طرقت الباب، وإذا بصوت ضعيف يقول ادخل يا ولدي.

دخلت ووجدت عنده شاب يدعى محمد علي وهو من خيار شباب قريتنا، فجلست بجانبه على الأرض.

رحمته وسعت كل شيء

وبعد أن تحدثنا قليلاً مع الشيخ، نظر الي ثم قال لي: يا بني لا تيأس من رحمة الله تعالى، إنّما ييأس من رحمته الكافرون به وبرحمته التي وسعت كل شيء[١]، فكل الكون خرج الى الوجود برحمة منه يا ولدي.

حتى أنَّ ابليس مع كثرة طغيانه وعصيانه وإفساده في العالم تشرئب عنقه يوم القيامة لرحمة الله تعالى، فهي بسعتها تحيّر العالمين.

قلت له: أيُّ رحمة عظيمة هذه؟!

فقال: يا ولدي إنّ لله مئة رحمة، أعطى عباده رحمةً واحدةً، فهم يتراحمون بها كلّهم حتى الأم مع ولدها، واختص لنفسه بتسعٍ وتسعين منها يرحم بها عباده.

هنا بكيت لعظمة رحمة الله تعالى التي تحيّر العقول.

١ـ من المناجاة الانجيلية للإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «الهي وسيدي لو أطبقت ذنوبي ما بين ثرى الأرض الى عنان السماء وخرقت النجوم الى حد الانتهاء، ما ردني اليأس عن توقع غفرانك، ولا صرفني القنوط عن انتظار رضوانك».

فقال لي: حتى أنّ رسول الله محمد ﷺ وهو أعظم مخلوق في عالم الوجود ولأجله خلق الله الكون بما فيه قد عنونه الله تعالى بعنوان عظيم فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١]، فحتى غاية الوجود وعنوان الوجود ونور عالم الوجود عُنون بالرحمة[٢]، فهل فهمت يا ولدي؟.

الغفلة عن النعم مع ظهورها

فلم أستطع أن أتمالك نفسي من البكاء الممزوج فرحاً لأنّي شعرت أنّ الرحمة تمتزج بكل ذرات الكون، وقد ذهلت لأني لم أرَها وهي عنوان كل عالم الوجود.

١ـ الأنبياء: ١٠٧.

٢ـ من دعاء يوم الفطر للإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «فلما بلغت بي تناهي الرحمة منك منت علي بمن هديتني به من الضلالة، واستنقذتني به من الهلكة واستخلصتني به من الحيرة وفككتني به من الجهالة، وهو حبيبك ونبيك محمد صلى الله عليه وآله أزلف خلقك عندك، وأكرمهم منزلة لديك»

فقلت: يا أيها الشيخ، دلني لماذا لم نَرَ هذه الرحمة وهي ظاهرة امام أعيننا؟.

عندها قال لي الشيخ: يا بني، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من عشق شيئا أعشى بصره، وأمرض قلبه . فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة»[1]، فالولد مثلاً حينما تأتيه بألعاب كثيرة وهو يريد لعبةً معينةً، تراه يبكي لأجل تلك اللعبة التي لم تحضرها له لأنّ هذه الألعاب ليست مراده، فهو لا يرى كل تلك الألعاب حتى يشكر والديه، بل ينظر فقط الى اللعبة التي لم يحصل عليها وتصبح الدنيا مظلمة في عينه.

وهكذا نحن يا بني، يقول لنا الله في محكم كتابه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[2] ونحن نغفل عن كل تلك النعم ولا نلتفت اليها، بل ينحصر همّنا بما نريد من أمور قد يكون بها تلفنا، فبدل شكرِ الله تعالى

١ـ نهج البلاغة: ج١ ص٢١١.

٢ـ إبراهيم: ٣٤.

على تلك النعم التي لا تحصى، نتهمه جل وعلا بالظلم الذي شعرنا به لعدم حصولنا على أمر نريده من الدنيا.

العبادة وكل خير بتوفيق من الله

قلت: يا شيخ اريد أن أتقرب من الله تعالى إلا أنّ أيامي متفاوتة في هذا الأمر، فبينا أنا قريب إذ أبتعد لأي سبب.

فقال لي: إنّك تسير الى الله تعالى بنفس سيرك الى الدنيا، وهذا خطأ.

فقلت له: كيف ذلك؟.

فقال: يا بني، لقد تربيت في المجتمع الذي يشعرك أنّ كل فرد هو الذي حصّل رزقه بنفسه فقد درس وعمل حتى نال وظيفته أو مركزه وكذلك في التجارة، وتَرَسَّخ هذا المفهوم في نفسك، وقد أردت أن تعبد الله تعالى وتتقرب اليه لكن بنفس الطريقة التي تربيت عليها للحصول على الدنيا، فقلتَ أريد أن أعبد الله تعالى، وشعرت أنك تعبد الله تعالى بقدرتك وقوتك، وإذا عبدته بهذه النفسية ستشعر من حيث لا تدري بالزهو وبأنك أفضل من غيرك، وهكذا تتراكم المشاعر التي تعيشها في نفسك، حتى

يصل بك الأمر الى الشعور برفعة عن الآخرين وأنّ عليهم احترامك بل وتقديسك، والبعض يصل الى درجة يمنّ على الله تعالى في نفسه، ويشعر أنّه اذا دعا الله تعالى على الله ان يستجيب له، وأنّه إذا صلّى صلاة الليل فاق العابدين.

والصحيح في علاقة العبد بربه أن يشعر بأنّه عبدٌ له تعالى لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة، عليه أن يطيع الله تعالى في جميع مجالات الحياة في صلاته وأكله وشربه وعمله، وعليه ان يجسد العبودية لله في جميع تلك المجالات، فيكون همّه أن يعمل لله ويصلي له ويشرب لله ويتزوج لله وينام لله تعالى.

وعلامة ذلك أن يخطر في باله دائماً حين الانتهاء من أيِّ أمرٍ هذا السؤال: هل عملته لله تعالى؟، ولا يفكر فقط بشكل العمل وكمّه.

فحين البدء بالعمل تتوجه نفسه الى العمل لله تعالى، وحين الفراغ منه يكون همُّه قبولَ الله لعمله لا مدح الآخرين، أفَترى من يخطب بالناس ينبغي أن يكون همه تأثُّرَ مستمعيه أم قبول الله كلامَه والعفو عن تقصيره؟.

لا حول ولا قوة الا بالله

سألت الشيخ: كيف اصل الى ذلك؟.

فأجابني: كيف تكون عبداً وتشعر بتلك العبودية وانت تشعر بالحول والقوة وبالعزة، وتنسب الإنجازات في حياتك لنفسك فتشعر بالزهو والفضل؟.

بل قد يستولي عليك الكبر في بعض الأحيان، والعبد هو الذي يشعر أنّ القوة من الله والحول من الله والتوفيق منه تعالى، فيشعر بنعم الله تعالى عليه، فتستولي عليه حينئذٍ حالة الشكر التي تسيطر على نفسه، ففي حال عمله وتحصيل رزقه يشعر أنّ الفضل لله تعالى، وحين دفع صدقة يشعر أنّ الله تعالى وفقه لدفع المال ولا يرى لنفسه فضلاً على الفقير، بل يشعر بفضل الله تعالى عليه وأنّ الفقير وسيلة لجعل ماله في سبيل الله تعالى.

أسباب عدم ثبات الحالة الروحية

ثم سألت الشيخ: لماذا أشعر بالقرب من الله في أحيان قليلة من العبادة فقط، ثم يزول عني الشعور بالقرب والحضور الربّاني، وهذا يزعجني

كثيراً، وإني إذا شرعت بالدعاء والعبادة لا تأتيني تلك الحالة النفسية والشعور بالحضور الرباني.

العبودية حالة قلبية تترشح على الجوارح

أجابني الشيخ: يظن الإنسان أنّه إذا خضعت جوارحه حصل المطلوب في العبادة والقرب من الله، والصحيح أنّ العبودية منشؤها نفسي وتترشح على الجوارح، فمن شعر في نفسه بالذل تجاه ربّه كمن يرى نفسه عاصياً أو مقصراً فينكسر قلبه وتعتريه حالة من الحزن الربّاني ستشعر نفسه بالحضور الرباني.

إنّ من شعر في نفسه بالذل والفقر والضعف والجهل والعجلة صيَّره هذا الشعور عبداً في نفسه، لأنّ العبد لا يملك فالمالك لكل شيء هو الله، فحينئذ يشعر بربه، وهذا الشعور يحصل عندنا غالباً حينما يموت من نحب فنشعر بالضعف والفناء وبقصر الأمل فتموج النفس بين أحلام الغرور وزينة الدنيا الفانية فتراها تتهاوى من أنفسنا، فنشعر بالجهل والتقصير وطول الأمل وعصيان الله، ويحصل عندنا حالة من الانكسار القلبي

والنفور النفسي من الدنيا فنشعر بخرابها وقبحها، وأنّها عجوزٌ قبيحة تزينت بكل مساحيق الجمال، ولكن لو امعنّا النظر بها لرأيناها من خلف كل تلك الزينة على حقيقتها زخرفاً زائلاً وجيفةً قذرة.

ولكنَّ هوانا اعمانا عن رؤيتها على حقيقتها لأنّا نظرنا إليها بأعيننا فرأينا زينتها ونظرنا اليها بعين الرغبة وطول الامل والحرص فغرتنا وخدعتنا وسيرتنا في طريق الشيطان.

من تواضع لله رفعه الله

فقلت للشيخ: بيّن لي بشكل أوضح فان المعنى دقيق.

فقال لي الشيخ: سأضرب لك مثالاً تفهم منه الحال، لأنّ عالم الوجود يجري مجرىً واحد في عالم المادة وعالم الروح.

اعتبر بالبذور، فإنّك إذا نثرتها فوق الأرض وهطل عليها المطر ولم تلج في الأرض تعفَّنت وفسدت، وإذا تواضعت ونزلت في الأرض وشعرت انها مفتقرة ولا حول لها ولا قوة ازدادت تواضعاً وأرسلت عروقها الى الأسفل لا الأعلى فمدَّها الله تعالى فارتفعت.

فكل من تواضع لله رفعه الله.

وكالجبال تتساقط عليها الامطار ولكن تنزل عنها وتستقر في الأودية، وإذا قست الأرض فكانت صخرية لا يمكن لعروق العبودية أن تشق طريقها فيها، فلا تنمو البذور وتموت وهي في وجه الشمس الساطعة فلا ينفعها مطر ولا شمس ذاك أنّها لم تنزل الى باطن الأرض حتى تنتفع بهما، وهكذا نحن يا بني مهما هطلت رحمة الله تعالى وتجلت أنواره وهذه النفس لم تتواضع وتَذل لله وتخضع له فلا تستفيد من كل تلك الانوار، بل تصبح كل نعمة من نعم الله تعالى عليها سبباً لكبرها، لأنها تراها لها ومنها فتستصغر كلَّ من حولها.

الشعور بالعظمة الإلهية

ثم قال لي: إنّ الإنسان يكون في حالة من العبادة والاستقامة ومع ذلك يشعر بالبعد عن الله غالباً وتحيّره هذه الحالة، لكنّه إذا ارتكب خطأً

ما شعر بالضعف والذل وحينها ينكسر قلبه فيقترب من ربه[١]، وهذه حال غالب المسلمين.

يا بني، إنّ ما اعترى النفس من حالات هو الذي ابعده حال الطاعة وقرّبه بعد الزلّة، ففي الحالة الأولى لم يشعر بذلّه وضعفه بل شعر بعمله ونسب الفضل لنفسه، وفي الثانية شعر بذلّه الى حد الانكسار والله ينظر الى القلوب، ولكنّ المرء لو شعر بعظمة الله تعالى وعرف الله بالعظمة ستتهاوى الدنيا من عينيه[٢] فلا تؤثر عليه، لأنّه رآها لا شيء فكيف تؤثر به شعوراً بالعظمة والكبرياء وهو يراها قذرة ولا شيء، بل يشعر بالخوف لشعوره بالعظمة الإلهية فلا يرى نفسه بل يرى تقصيره مهما فعل، فدائما يخاف

١ـ في الخبر انه سئل رسول صلى الله عليه وآله أين الله فقال: عند المنكسرة قلوبهم.
بحار الانوار: ج ٧٠ ص ١٥٧.

٢ـ في خطبة المتقين لأمير المؤمنين عليه السلام: «عظم الخالق في انفسهم فصغر ما دونه في اعينهم».
نهج البلاغة: ج ٢ ص ١٦١.

من عمله لأنه يراه لا يليق بعظمة ربه، هذا إذا عمل لله وإذا قصّر أو أخطأ حلّت مصيبة في نفسه وهكذا يكون الأولياء.

فمن كشفت بصيرته رأى بعقله وقلبه لا بناظريه وهواه ومناه، فلا تغشه الدنيا بل تصبح كتاباً إلهياً يرى فيها قدرة الله وجماله وعظمته، فلا يستطيع الشيطان حينها أن يجمّلها عنده، فهو قد رأى فناءها وغاية ما يفعله إبليس أن يغريه بلذتها وسعادتها، فهل ترى أنّه يشعر بحلاوتها وهو يشعر بفنائه وفنائها وخستها وأنّ الله تعالى لم ينظر اليها منذ خلقها؟.

إنّه للناس مع الدنيا نظرتان، فغالب الناس ينظرون اليها فيرون اللذة والجمال والغرور والقوة فتعميهم، والمؤمن ينظر بها فيرى قدرة الله تعالى فتصبح آية من آيات الله تعالى تدله على الله تعالى، فبحكمتها تحكي عن حكمة الله تعالى، وبذاتها تدل على فنائها، فاختر يا بني كيف تنظر اليها فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «من نظر اليها اعمته ومن بصر بها بصّرته»[١]، فمن نظر الى زينتها ولذتها سيستغرق فيها فلا بد أن يصبح أعمى عن

١ـ بحار الأنوار: ج٧٥ ص٢٣.

حكمتها لا شعورياً، فتجره نحو طلبها فلا يعود يرى غير لذتها فيعمى عن غيرها، ولو نظر الى غيرها لن يراه لأنّ الدنيا أعمت قلبه.

كالإنسان المشغول بأمرٍ ما وهو يبحث عن شيءٍ أمامه ولا يراه، فتقول له لماذا لم تَرَه وهو امامك وأنت تنظر اليه، بل قد يكون في يده فيقول لك إني معمى القلب لأنّي مشغول جداً.

فمن أصبحت الدنيا شغله الشاغل أصبح أعمىً عن حكمتها مستغرقاً في لذتها، فكيف يسير في الطريق الى الله وهو لا يراه ولا يطلبه؟.

هل الدنيا دار راحة؟!

بينما نحن على تلك الحالة إذ طُرق الباب فدخل رجلٌ فسلم وجلس، وبعد أن اطمأن على صحة الشيخ، قال للشيخ: إنّي أشعر بضيقٍ في صدري وبقلقٍ وبعض الأحيان لا أستطيع النوم، ولا أعرف السبب بالدقة، وإنّ أموري لا تجري كما أريد.

فقال له الشيخ: يا أبا صالح، هل تعمل لتستريح أم تستريح لتعمل؟.

فقال له الرجل: شيخنا، كل الناس يعملون حتى يستريحوا، إنّ الإنسان يعمل حتى يجمع مالاً أو يحصل مركزاً وهكذا تدور أغراض الناس، فنرى الإنسان يعمل ويجمع المال حتى يبني بيتاً ويستريح أو يؤسس مؤسسة ويستريح أو يتزوج ويستريح، فالراحة غرض.

فقال له الشيخ: أسألك سؤالاً آخر يا أخي: هل الدينا دار راحة ام دار عمل؟

فقال: دار عمل.

فقال له الشيخ: انظر يا أبا صالح الى حالة التناقض التي يعيشها ابن هذا المجتمع، فهو من جهة يريد أن يستريح في الدنيا ومن جهة يقرٌّ بأنّ الدنيا دار عملٍ، فكيف يجتمع في الدنيا هذان الغرضان الراحة والعمل، إنّ المؤمن يا أخي يستريح ليعمل، وهذا هو قانون الشريعة وغير المؤمن يعمل ليستريح، والإنسان يعيش بمشاعره ونفسه مع اهل الدينا فالكل يترجم ذلك في أفعاله وسعيه للسعادة في الدنيا بالراحة، من خلال السعي للملذات من طعامٍ ولباسٍ ومسكنٍ ورئاسةٍ وغيرها، فيكون عمله لأجلها

لأنّها تحقق له السعادة واللذة، فهي غرضه الأول وكل ما يحول دون تحصيلها فهو عدو بنظره، خصوصا مع سعيه الحثيث لها.

وكون الدنيا دار عمل فهي مجرد فكرة لا تعدو الذهن عند أغلب الناس ولا تكاد تترجم إلا في الصلاة والصدقة، أما روح حركة الناس فتتجه الى الدنيا الى درجة يريدون الله جلت عظمته لتحصيل الدنيا، فيتعاطون مع الله تعالى كأنّه وسيلة لتحصيل الأموال والأغراض الدنيوية، بل يصل الى حد تصبح صلاته ودعاؤه وعبادته مَعْبَراً يريد بها الله لدنياه، فتصبح الصلاة والصوم وسيلة لله لتحصيل الدنيا.

والصحيح أن تكون الدينا وسيلةً لتحصيل القرب من الله تعالى، أي تجعلها وسيلةً لتحصيل القرب من الله تعالى ولا تجعلِ الله وسيلة لتحصيلها، ومن يطلب الدنيا وسيلةً لله تعالى فإنَّه لا يجعل الله وسيلة للدنيا.

التعلق بالأحلام

فقال الرجل: شيخنا الجليل، أنا أريد أن أعبد الله تعالى فدلني الطريق.

فقال له الشيخ: ليس المهم ما تفكر به، لأنّ الانسان يفكر غالباً في أمورٍ كي يريح نفسه، فيفكر بالعبادة والصلاة كي يريح نفسه أو يسكت ضميره بأنّه يصلي وهكذا يفكر في صدقته، ولكن العبرة بما تشعر به روحه.

هل لديك آمال دنيوية تخاف أن تفوتك ولا تحصل عليها؟.

قال: نعم، ولكن أنا مؤمنٌ بالله تعالى، وأقول لنفسي يفعل الله ما يشاء.

فقال له الشيخ : العبرة بما هو ساكن في النفس والروح، فقد كان لديك آمال تريد حصولها، وأصبحت احلاماً وهدفاً في نفسك، واشتغلت نفسك بها وصارت مشاعرك تدور حولها، وإذا وصلت الى هذه الحال يصبح فرحك وحزنك يدور مدارها وتسعى لها بشدة، فيصبح الحصول عليها في نفسك حقاً لك، وإذا لم تحصل عليها تشعر بالأسى والمظلومية.

وفي هذه الحالة تسكن الكآبة النفس وتعيش الحزن والضيق، لأن النفس أضحت تدور بمشاعرها حول هذه الحاجة، فيصبح فقدُها فقداً لسعادة النفس، فحينئذٍ يشتد الألم النفسي فينقلب غرض النفس الى

اذهاب الألم الذي يكسوها ويحيل نهارها ليلاً وضياءها ظلمةً، وتبحث عن فرج يمزق ألَمَها والظلمةَ التي غشتها ويعيد الفرحة الى مملكة النفس الحزينة.

ويصبح خوف الألم هو المسيطر على مملكة النفس، فتخاف المستقبل وتخاف الحوادث وتغشاها حالة من التشاؤم، فتخاف على كل من حولها، فهنا لم يعد هناك أحلام ولكن هذا الخوف يورث القلق.

والسبب انّ المرء يصبح يخشى وقوع الحوادث في الحال والمستقبل، بل يصل الى درجةٍ يخاف بطريقة غير عقلائية، وهذه الحالة اذا سيطرت على الانسان هدّت أركانه.

لا يكن همك تحصيل الكرامات

فقال محمد علي للشيخ: مولانا لقد خرجت من عالم الاحلام حينما مزقت الاحلام ورضيت بالآلام، فلم تعد اللذة تسرح بي في ربوع الدنيا كالأنعام، ولم يعد الألم يحكمني فيهز الخوف كياني وكأني ريشة في مهب الريح، ولكن أحب ان أصل الى القرب من الله تعالى.

فقال له الشيخ: إنك سمعت عن اشخاص ساروا في طريق الله فتحمست الى ذلك.

فقال له محمد علي: نعم جلست مع بعض المؤمنين وكانوا يتكلمون عن الأولياء كيف يعرفون حالات الأشخاص، وكيف يحصل لهم كشوفات وغيرها من الكرامات.

فقال له الشيخ: يا بني إنك دخلت من حيث خرجت وانت لا تدري.

فقال له: كيف ذلك؟.

قال الشيخ: قد كان في نفسك هدف دنيوي ولشدّة ما آلمك خلعته، وأنت الآن تجعل هدفك حصول الكرامات والكمال وتسير إليه بشدة، وبعد فترةٍ سينغمس في نفسك ويسيطر هذا الحلم الدنيوي أيضاً على مشاعرك ويسيّرها وعندما لا تصل تقع في الألم الأشد.

سأله: وما السبب؟

قال الشيخ: إنّ نفسك بدّلت الأهداف من هدف دنيوي الى هدف دنيوي آخر ألبسته رداء القداسة، وكان الألم ينخر عظام النفس، فسعت

بكلكلها لرفعه عنها، وأمّا وقد دخل الهدف الثاني اليها فعندما لا تحصل عليه سيعود الألم بشكل اشد، فهل تدفعه بالله تعالى كما فعلت مع الأول؟ ولكن هذا الألم جاء من جهة زينت لك نفسك أنّ طلبه لله تعالى، فلا تستطيع الوصول ولا تستطيع الرجوع.

فإن رجعت عن طلب الله تعالى لن تستطيع حينئذٍ دفع الألم، فتقع في حالة من الضياع والألم الشديد الذي لا يعرفه ولا يعرف ناره إلّا من جربه.

العبودية وطلب الكمال

يا بني لا تطلب الكرامات ولا الكمال، فإبليس طلب ان يكون الأكمل فعبد الله سبعة آلاف عام، فشعر أنّه الأفضل، ولكن لمّا أُمر بالسجود لآدم بما يعنيه في نفسه من كون آدم افضل منه لم يستطع تحمُّلَ ذلك فعصى ربه فأصبح شيطانا رجيماً.

ولكن الله سبحانه وتعالى أشهد خلقه في عالم الذر على ربوبيته وأول شيء أُقِرَّ به هو ربوبية الله تعالى، وأول من أقَرَّ بذلك هو محمد ﷺ ولم يقر محمد ﷺ بأنه الأكمل بل أقر بأنّه الأعبد لله جل وعلا، فاختاره الله

وفضّله على العالمين، ووصفه الله بأنّه الأكمل وهو ﷺ لم يَرَ نفسه إلّا عبداً لله جلت عظمته، والإقرار بالربوبية المطلقة هو إقرار بالعبودية المطلقة، لأنّهما معنيان متضايفان، فمن أقر أنّه ابنٌ لزيد فلا محال أنّه مقرٌ بأن زيداً أبوه.

يا بني يجب أن يكون غرض الانسان العبودية لله تعالى فيسعى لتحصيل كمال الأخلاق والكمالات كلّها حتى يعبد الله عبادة يرضاها، فكلّما حصّل الإنسان كمالاً أوجد عبادةً أفضل لأنَّ النيَّة ستكون أخلص والعمل سيكون افضل.

ولهذا تقول الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فاطلب يا بني عبادة الله تعالى بإخلاص وهذا يمكّنك في كل ساعة أن تأتي بالعمل وأنت تقصد الإخلاص لله تعالى، والسعي لتحصيل الإخلاص جهاد محبوب لله تعالى، فلا تفكر فقط أنَّ العمل لم يكن خالصاً، بل فكّر أنّك جاهدت نفسك لكي تخلص لله وهذا في نفسه محبوب لله، وعندها

١ـ الذاريات: ٥٦.

ستكرر العمل من غير يأسٍ فقد اخلصت في الجهاد، فلا يعود لإبليس سبيلٌ عليك.

فإن قال لك ابليس لعنه الله: إنك لم تستطع الإخلاص فاترك العمل، قل له: الحمد لله فقد وفقني للجهاد، فالآية تقول ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

ولا تيأس من رحمة الله فإنّك لا تعلم في أي ساعة يمنُّ الله عليك بالإخلاص بعد الجهاد، فالحر الرياحي استطاع بحول الله وقدرته أن يخلص لله نيَّته في لحظة واحدة فاصبح من الأولياء، وكذلك سحرة فرعون حينما خضعوا لله تعالى وعلموا بعظمة الله استصغروا الدنيا ولم يبالوا بها، فأصبح همهم ان يغفر الله لهم خطاياهم، ولم يروا انفسهم إلا مقصرين وعاصين، ولم يكن طلبهم إلا أن يغفر الله لهم فاستخلصهم أولياء.

١ـ العنكبوت: ٦٩.

إنّ أولياء الله يا بني لا يرون انفسهم اهلا أن ينظر لهم الله أو ولياً من أوليائه، فهذا حبيب بن مظاهر على ما هو عليه من الشأن العظيم لم ير نفسه أهلاً لأن تكلّمه زينب عليها السلام فتمرّغ بالتراب، بينما ترى مدّعي الولاية مثل الصوفية يريدون ويدّعون أنّ الله يكلّمهم، وآية سوء حالهم أنّهم ينتشون طرباً ولا يخضعون ولا يخافون من عظمة الله جل وعلا.

فتدخلت قائلاً: يا شيخنا، اذكر لي العلامات حتى تتضح الصورة وأميّزَ الحالات.

فقال لي: من يريد الله تعالى بحق فلا بد أن يكون همّه العبودية لله ويسيطر هذا الهم عليه وعلى مشاعره وجوارحه، ولذلك علامات.

الأولى: أن ينظر الى كل فعل كيف يقربه الى الله، ويكون همّه ماذا يريد الله تعالى منه، وعلامة الهمّ أنّه كلّما نظر الى شيء رأى قدرة الله تعالى فيه، وأيّ عمل يعمله ينظر اليه هل يرضاه الله تعالى، وكيف يكون اكمل عند الله تعالى، ويسعى في عمله على ذلك النحو، فالنبي ﷺ قال

لأبي ذر: «يا أبا ذر ليكن لك في كل شيء نية، حتى في النوم والاكل»[١]، فحتى النوم وهو ضروري للإنسان عليه أن ينويه قربة الى الله تعالى، كأن ينوي به التقوّي على الطاعة، وكذلك الطعام والشراب، فيسيطر رضا الله تعالى على قلبه، فلا يفعل شيئاً إلا إذا عنونه بالقرب الى الله تعالى، واذا حطّ البلاء في ساحته يهتم برفعه ولكن همّه الأكبر كيف يصير البلاء مقرّباً الى الله تعالى، فإذا ارتفع البلاء يتوجه أولاً لحمد الله تعالى لأنه صبّره عليه ويدعو الله ان يتقبّل صبره، ثم يحمد الله على رفع البلاء.

أمّا غالبنا فحين نبتلى يكون همّنا الأكبر أن يرتفع البلاء عنّا ونشغل بذلك أهل الأرض وأهل السماء، وحينما يرتفع البلاء نحمد الله على رفعه لأنّنا استرحنا من همّه، ولا نفكر هل حسن صبرنا على البلاء، وهل رضي الله به وقبله، فلا نلتفت الى ما يقربنا، بل همنا ارتفاع البلاء لا قبول الله الصبر عليه، والدليل ما تشعر به لا ما تتكلم به.

---

[١]- وسائل الشيعة: ج١ ص٤٨.

ومن هنا نرى الإمام الحسين عليه السلام حين البلاء كان همّه رضى المولى فهو القائل: «هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله»[١]، وهكذا كان أصحابه عليه السلام لا ينظرون الى الآلام، بل همهم هل رضي الله تعالى والإمام عليه السلام بفعلهم وجهادهم حتى يشكروا الله على ذلك.

ومن هذا المعنى تستطيع التمييز بين من يريد الله لحاجته ومن يريد عبادة الله تعالى.

العبودية الحقيقية

وهنا أمر ينبغي الالتفات اليه، وهو الفرق بين أن ترى نفسك عبداً وبين أن تجعل نفس عبداً.

يا بني اذا قال لك شخص عزيز عليك عامل هذا الرجل كأبيك فله فضل علينا، فشرعت في التعامل معه بطريقة جيدة ولكنه لم يتعاطى معك بما هو لائق ثم تعدى وآذاك، فاذا اشتدت حالتك ستقول له انت لست

١ـ اللهوف: ص٦٩.

ابي وقد تحملتك كثيرا ولن اخدمك بعد الآن، والناس ستكون معك فانت احسنت وهو اساء.

ولو كان الرجل اباك فعلاً فمهما فعل معك تصبر وتتحمل وهمك رضاه لأن له حق عظيم عليك، ولو قلت له قولا غير لائق تندم والناس يلومونك.

وهكذا الحال يا ولدي مع الله تعالى فمن سمع عن عبادة الله تعالى وقدسية العابدين تتوجه نفسه لطاعة الله تعالى، فيقول سأجعل نفسي عبداً لله تعالى وسألزم نفسي بالعبودية لله، فيتحرك في طاعة ربه، ولكن حينما تنزل به بعض البلاءات سيقول يا رب اني اصلي واصوم فلماذا هذه البلاءات تنزل بي وتؤذيني؟

واذا كان وافر عقله يعرف أنّ هذا الكلام خلاف الادب على الله تعالى ولكن خواطره تدور في هذا المحور وغالب الناس تعبد الله تعالى من هذه الجهة فيترتب على ذلك امور:

أولاً: يشعر أن البلاء حط بساحته مع انه جعل نفسه عبدا لله تعالى.

ثانياً: يمن على الله تعالى بعبادته فهو من جعل نفسه عبداً وغيره لم يفعل، فتراه يشعر بأنه عبدٌ مطيعٌ لله تعالى.

ثالثاً: يرى أنه أفضل من غيره.

والنظرة الصحيحة يا بني أن يعرف نفسه بأنه عبد لله في ذاته، وليس هو من جعل نفسه عبداً، وحق الإله على عبده عظيم، بل تكاد السماوات لا تحتمله ومهما فعل فهو مقصر لأنه لا عبادة من هذا العبد تليق بالله جل جلاله.

وكيف يتجرأ هذا المخلوق بأن يمن على خالقه وهو بمعصية واحدة يستحق العذاب الابدي، وطاعته كانت بقدرة الله وتوفيقه، فعليه أن يشكر الله لعفوه عنه ولتوفيقه لطاعته فيرى طاعته فضلا من الله عليه، واذا نظر الى العاصين يشكر الله انه لم يبتله بما ابتلى به غيره، وحينئذٍ يرى البلاء الذي حل بساحته لازم للدنيا، فالدنيا دار بلاء، فلا يطلب فيها الراحة ويرى البلاء قليلاً في جنب عصيانه.

فإذن عليه ان يعرف أن لله حق عظيم عليه وليس هو المتفصل على الله بان يجعل لله حق عليه، اي يعرف ان لله حق العبودية على عباده وليس هو من يجعل حق الله بالعبودية عليه.

اغتنام فترة الشباب

ثم سألته: لأيِّ أمرٍ نجد الشاب أقرب الى الهداية من غيره؟.

فقال لي: إنّ الشاب لم تمسخ فطرته، ولهذا تقوم الثورات على اكتاف الشباب، فهم اقرب لطلب الحق وكره الظلم، فينبعثون لرفعه، وهذه الحال هي السبب غالباً في حركة ثورات الشعوب ضد الظالمين.

من هنا كان السير في طريق الله تعالى أسهل من جهة على الشاب إذا أراد ذلك وقوي في نفسه حب طلب الحقيقة.

إلّا أنّ الشاب ايضاً اشدُّ من سار في طريق اللهو والمجون عصياناً، فـ«الشباب شعبةٌ من الجنون»[1] كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله.

١ـ من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٧٧.

كما أن الشاب إذا أراد الحق فالمسؤوليات عليه أخف، ومن جهة أخرى فهو لم يجرب مرارة الحياة فلهذا ينبعث في طلب الحق والسير في الطريق المستقيم بسرعة اكثر من غيره، فالخوف من المستقبل ومن مشاكل الحياة أقلُّ لديه فلا يراعيها على حساب مبادئه، وهذا ييسر له المضي في الطريق المستقيم كما أراد الله تعالى، فالروح غير مكبلة باللذائذ والمخاوف، أما الأكبر سناً فلقد عانى مرارة الحياة، وعليه غالباً مسؤوليات كثيرة، فهو يريد اللذة التي زرعت في نفسه وهذا يجعلها أقوى فهي تقيّد حركته، وإذا استطاع في آنٍ أن ينزع السعي الى اللذة يبقى في نفسه خوف الألم الذي تجلبه الحياة فتجعله يخاف ويعيش الاضطراب النفسي في كثير من الأحيان، وهذه رحلة صعبة جداً على الإنسان الى أن يرضى بالألم.

ولكي يرضى بالألم يجب أن يعيش في نفسه الحقائق من أنّ الدنيا دار ممرٍ وامتحان، وأنّه عبد لله تعالى يرضى بما يقضيه ربه، وأنّ الجزع يحبط الأجر والصبر يضاعفه، فعندها تتجه نفسه نحو تحمل الألم وفي هذه الحالة يضعف هول الألم في نفسه فيستطيع الرضا به بنسبة كبيرة، ويفهم

الإنسان عندها أنّ هذه الآلام من شؤون الحياة، فالحياة مبنية على الألم والتعب، قال تعالى في كتابه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[1] أي في تعب.

فروح الشاب أشفّ وأرقّ، وإذا استغلها الانسان يكون أسرع تقرباً وهدايةً من غيره لأنّ مسيره في الحياة قليل وقلبه أشف ولم يرن على قلبه فيبتعد عن ربه.

المعرفة فطرية كامنة في النفس

قلت للشيخ: دلني على أول الطريق، فكلنا نتمنى القرب ولكن لا نعرف كيف نسير.

قال الشيخ: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أوّلُ الدين معرفته»[2]، وهذه المعرفة مزروعة في نفس الإنسان إلا أنها تحتاج لما يوقظها لأنها معرفة

١ـ البلد: ٤.

٢ـ نهج البلاغة: ج١ ص١٤.

فطرية، ويدل على فطرية المعرفة ما ذكره الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه من أنّ رجلا سأله «ما الدليل على الله تعالى، ولا تذكر لي العالم والعرض والجوهر؟.

فقال له: هل ركبت البحر؟.

قال: نعم.

قال: هل عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق؟

قال: نعم.

قال: فهل انقطع رجاؤك من المركب والملاحين؟

قال: نعم.

قال: هل تتبعت نفسك أن ثمة من ينجيك؟

قال: نعم.

قال: فإن ذاك هو الله سبحانه وتعالى»[1].

إنَّ الإمام عليه السلام أشار في هذه الرواية الى معانٍ متعددة:

١ـ البرهان: ج١ ص١٠٦.

منها: أنّ النفس تعرف بوجود إله، لأن النفس لا تتوجه نحو المجهول المطلق، فلو قال لك شخص: أعطِ هذا المكتوب لزيد، وانت لا تعرفه فإنّك لن تستطيع أن تعطيه المكتوب بل تسعى الى معرفته عبر من يعرفه، فإذا عرفته سألت عن مكانه حتى توصل له المكتوب.

ولكن فيما نحن فيه تتوجه نفسك مباشرةً الى الله تعالى، لأنّك تعرف بأنّه في كل مكان وقادر على إنقاذك حيث لا يستطيع أحدٌ ذلك غيره جل وعلا، والإنسان لا يطلب من العاجز، وتعرف بأنه رحمان ورحمته وسعت كل شيء، ولذا حتى الكافر والعاصي تتوجه نفسه اليه وهي تتأمل ان ينجيها، لأنّها مفطورةٌ على قدرته ورحمته ومفطورة على ربوبيته، وتسأله النجاة دون أن تعلم كيف، لأنّها تعرف بأنّه مدبّر، فهي مقرّةٌ بتدبيره بالفطرة، ولم تتوجه نفسه إلا نحو قادر واحد، وهذا يدل على معرفتها بالتوحيد، وإلا لو كانت تظن أن لها أكثر من إله لسعت لاختيار إلهٍ من بينها، مثل الشخص الذي يريد أن يستدين وعنده عدة اشخاص تراه

يرجح بينهم حتى يختار شخصاً منهم ولكن هنا لا تتوجه النفس إلا الى قادر واحد.

ثانيا: حينما يأتي الرسول بمعجزة ترى الناس يقرّون بأنّه نبيٌّ لإلهٍ عظيم، لماذا هذه الملازمة بين المعجزة وصدق النبوة والاقرار بوجود الإله؟، فلماذا اذا جاء بمعجزة يصدقوه؟ لأنّ هذه القدرة فوق قدرة المخلوق، فهم يقرّون فوراً بأنّ خالقاً أعطاه هذه القدرة.

ثالثا: إنّنا نرى كل الأمم اقرّت بوجود إلهٍ ولكنها اخطأت في تشخيصه، فمن عبد الأصنام أقرّ بوجود إلهٍ ولكن جعل الصنم هو الإله، وهذا الخطأ يعود للإنسان، وليس هنا محل شرحه.

وعليه إنّ معرفة الله تعالى موجودة في نفس الإنسان ولولا هذه المعرفة لم يستطع أحدٌ أن يعرف ربّه أو أن يتوجه اليه، والسبب في ذلك أنّ كل أدوات المعرفة الموجودة عند الإنسان غير قابلة لإدراك الله تعالى، وإنما هي منبهة لهذه المعرفة، ولهذا أوجد الله تعالى بقدرته معرفته الفطرية في نفس الإنسان وهذا هو الإشهاد في عالم الذر على ربوبيته عز

وجل، ولكنّ الإنسان نسي الموقف وبقيت المعرفة، ولهذا علامات كثيرة: انظر الى الإنسان إذا تفاجئ بأمرٍ عظيم أو مهول تراه ينسى اسمه ولكن يحضر الله في روحه فيقول: "يا الله" لأنّ الله القادر موجود في روحه.

والمؤمن حينما ينظر الى الكون ويدرك ما فيه من عظمة متجلية لله تعالى يشعر حينها بالحضور الإلهي وبقدرة الله تعالى، فتشعر النفس بالعبودية لله تعالى.

نماذج من العبودية

حمل الشيخ المصحف الشريف وأخذ يتلو علينا هذه الآيات الكريمة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ

وَمُوسَىٰ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾[1]

ثمّ قال: إنّ سحرة فرعون حينما رأوا معجزة موسى سلام الله عليه عرفوا أن هذا ليس سحراً، بل هو معجزةٌ و آيةٌ عظيمة من آيات الله تعالى ، فأقروا بالألوهية لله العظيم وأنه الرب وبيده كل شيء وعظمته لا

١ـ طه: ٦٥-٧٦.

توصف، فعظم الله في أنفسهم فاستصغروا فرعون وملكه و جبروته وعذابه وخروا سجداً لله تعالى أمام فرعون، فكم عظم الله في أنفسهم حتى تهاوى فرعون من أعينهم مع ما كان له في أنفسهم من عظمة؟، وحينها أدركوا أنهم عبيد لله تعالى وعليهم أن يطيعوه تعالى وشعروا بمعاصيهم وعظيم قبحها، فقالوا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر.

وهذا يدل على أنّ معجزة موسى عليه السلام أفادتهم أولاً: ألوهية الله تعالى الذي أجرى هذه المعجزة على يدي موسى عليه السلام. وثانياً: عرّفتهم عظمة الله تعالى بدرجةٍ كسرت كل الحواجز النفسية والخوف من العذاب الشديد والإغراء بالدنيا وزينتها التي زرعها فرعون في نفوسهم حتى قالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

فكم استصغروا الدنيا وأهلها وعرفوا أنهم عبادٌ أذلاء لذلك الإله العظيم، فعظّموا الله تعالى وخضعوا له، وأدركوا أنّهم عصاة فخافوا العقاب لأن مخالفة العظيم عظيمة، وما صار همّهم أن يجعلهم الله تعالى أولياء

لأنهم خالفوا فرعون وعرضوا أنفسهم لعذابه واستصغروا الدنيا وأهلها لأجل الله تعالى، بل أضحى همّهم ان يغفر الله العظيم خطاياهم.

نماذج من الطغيان

أمّا قوم إبراهيم عليه السلام مع أنّهم عرفوا أنّ الحق معه لم يقرّوا بعظمة الله في أنفسهم فرموا إبراهيم عليه السلام في النار نصرة لألهتم الحجرية، وقوم هود قتلوا الناقة التي هي المعجزة الإلهية وهم من طلبها من الله تعالى وأكلوا لحمها، ولم يستطيعوا ترك شرب قليل الماء واستبداله بحليب الناقة المباركة، لأنّهم لم يقروا بالمعجزة وجحدوا بها مع وضوحها عندهم، فخذلهم الله تعالى فتعدوا على الله تعالى جلت عظمته بالتعدي على آياته وأنبيائه عليهم السلام، فانظروا الى الفرق بين سحرة فرعون وهؤلاء العصاة الكفرة.

فانظر يا بني، واعتبر بخذلان من يجحد الآيات وعظمتها فيرتكب الجرم العظيم بقتل الآيات والأنبياء عليهم السلام، وبمن يقرّ بالآيات فيقرّ بالله وعظمته وربوبيته كيف يوفقه الله تعالى لطاعته، ولهذا من لا يقر بفضل

محمد وآله صلوات الله عليهم وهم آيات الله العظمى أو يترك نصرتهم لابد أن يخذله الله تعالى فيهوي مع الظالمين.

طريق العبودية هو الصراط المستقيم

ثم قال الشيخ: إنّ الدين قائم على الإقرار بوحدانية الله وربوبيته وهذا هو الامر القائم في عالم الذر، ومن هنا نفهم سبب اختيار الله لمحمد صلوات الله عليه في عالم الذر، فالروايات تقول أنه حينما قال الله تعالى ألست بربكم كان أول من أجابه محمد[1] صلى الله عليه وآله، وهذا إقرار بالربوبية والاقرار بالربوبية المطلقة عين الإقرار بالعبودية المطلقة.

ومن هنا نفهم لماذا كان محمد صلى الله عليه وآله يجلس جلسة العبد حتى حين الأكل، فلم يستطع أن يغفل للحظة عن عبوديته لله تعالى، فكانت حياته

١ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن بعض قريش قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: بأي شيء سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم ؟ قال: إني كنت أول من آمن بربي وأول من أجاب حين أخذ الله ميثاق النبيين "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى " فكنت أنا أول نبي قال بلى، فسبقتهم بالإقرار بالله». الكافي: ج١ ص٤٤١.

كلها طريق للعبودية التامة لله، وطريق العبودية هو الصراط المستقيم ولأجل ذلك جعل الله محمداً صلى الله عليه وآله أسوةً لكل البشر، فكل من أراد أن يكون عبداً لله تعالى عليه أن يسير على خطى محمد صلى الله عليه وآله، من هنا قول الأمير عليه السلام: «لقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه»[1]، أي خطوت على أثر خطاه بعينها، فكان الأمير عليه السلام كذلك هو الصراط المستقيم لأنّ خطاه خطى محمد صلى الله عليه وآله.

تأثر الأفكار بالمشاعر

سألت الشيخ: لماذا تأتي الشبهة في نفسي وتنعكس على روحي؟.

فقال لي: يا بني إنّ الإنسان ينطلق تفكيره غالباً من مشاعره وهي التي تؤثّر في قراراته وأفكاره، فالإنسان يشعر بمشاكله الناتجة عن أمور الدنيا الخارجية، فمن فكّر بالمال لشراء الدواء وبالمال لأجرة البيت ولعلاج عياله سيؤثّر هذا التفكير على مشاعره، فظروفه الخارجية التي تسبب له

١ـ نهج البلاغة: ج٢ ص١٥٧.

بعض المشاكل ستأخذ حيّزا كبيراً من حركته، وإذا تملكته همومه وحاجاته سيرى العدل الإلهي من منظور انقضاء حاجاته، والسبب أنّها أمور تؤثّر على مشاعره ونفسه، فينظر الى الكون من خلالها فتصبح هي المرآة التي تنعكس فيها كل الصور فتُلَوّن بلونها، ومن خلالها تصدر الاحكام النفسية الخاطئة التي تؤثّر على نفسية العبد وتنعكس على إيمانه وتفكيره.

فالنفس إذا استغرقت بهذه الأمور ونظرت الى نفسها وحاجاتها لابد أن ترى أنها متحملة للمصاعب ومعاناتها شديدة، فتبدأ أولاً بلوم الآخرين وترى الظلامة تحط بساحتها، وإن شعرت بخطء ما بررت خطئها بتحملها لمشاكلها.

وهذا بعينه يصيب نظرتنا الى الله تعالى، فترى النفس أنها تتحمل قضاء الله تعالى بالبلاء والحال أنّها تعبد الله تصلي وتصوم وتتصدق وتأتي بغيرها من العبادات، فتسيطر عليها حال من الكآبة والقلق وعدم التوجه في الدعاء والصلاة، ومن الممكن أن تجف دمعة العين فالنفس أسيرة

للألم الذي تشعر به، فكلما عظم الألم في النفس انطلقت في نظرتها منه، فلا بد أن يصاب الإنسان حينئذٍ بتلك الحالة.

والصحيح يا بني أن يفكر العبد بالكون وحكمة الله تعالى فيه حتى تتجلى عظمة الله تعالى في نفسه، ويتفكر بسنن الله في خلقه فحينها يفهم أنّ البلاء الذي يحلُّ بساحة العبد ليس انتقاماً بل هو بلاءٌ يكشف عن إيمان العبد، فعلى العبد أن يُشعرَ نفسه برحمة الله تعالى وحكمته وأن يرى تقصيره في طاعة ربه.

ولينظر أنّ الله تعالى يختبر عبوديته، فالله تعالى يبتلي عبده بالفقر والغنى أو غيرهما حتى يبرز ما أكنّه العبد ويرى فعله حال البلاء كما ذكرت سورة الفجر: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[1]

١ـ الفجر: ١٥-١٦.

ويجب على العبد أن لا يتهم ربه، انظر يا بني في قصة هذا العابد، عن أبي الحسن عليه السلام: « إن رجلاً في بني إسرائيل عبد الله أربعين سنة ثم قرب قربانا فلم يقبل منه، فقال لنفسه: ما أوتيت إلا منك وما الذنب إلا لك، قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: ذمك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة»[1]، وهذا يعني أنه عبدٌ يقدّس ربَّه ويسبّح ربَّه، فالذي يقدّس ربَّه وينزّهه هو الذي يتهم نفسه ولا يتجرّأ أن يفكر بخاطر سوءٍ بربه.

قلت: يا شيخ كيف يجب أن ينظر العبد؟.

قال: يا بني، إنّ الإنسان إذا نظر الى بلاء الأنبياء وصبرِهم قدَّسَهم وقدّس صبرَهم لله تعالى، ولم يتهم نبياً ولم يتهم الله تعالى، وإذا اشتد البلاء على الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام كما حدث في عاشوراء -مع أنّه البلاء العظيم-لا يتهم الله في قضائه بل يقدّس الأوصياء على صبرهم والرضى بقضاء الله تعالى لأنه ينطلق في تفكيره من قداسة ربّه وحكمته،

١ـ الكافي: ج٢ ص٧٣.

وأنّه على العبد أن يصبر على بلاء مولاه، ويرى ما أصابهم اختباراً لهم وليس عقاباً.

ولكن عندما ينزل البلاء في ساحته تختلف النظرة وتبدأ حالة التشكيك الداخلية حتى وإن كان العقل لا يريدها.

فمن نظر الى آلامه وجعل هذه النظرة هي الأساس في النظر الى حكمة ربه سيعمى عن الحقيقة لأنّه عندها صاحب حاجةٍ وصاحب الحاجة أعمى فلن يرى الحكمة ولن يرضى بها.

عبودية النبي إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لله عز وجل

ولكن إن نظرنا في قصة أمر الله لإبراهيم بذبح ولده اسماعيل عليهما السلام نجد ابراهيم عليه السلام ممتثلاً لأمر الله كما نجد إسماعيل عليه السلام يقول: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

١ـ الصافات: ١٠٢.

فنبي الله إسماعيل عليه السلام لم ينطلق من ألمه الذي يوجبه الذبح وقطع الأوداج والموت وكون ذلك على يد من يحب، وكذلك إبراهيم عليه السلام لم ينظر من خلال آلامه التي يسببها ذبح الولد الوحيد الحبيب الذي أتاه على الكبر، بل نظر إسماعيل عليه السلام إلى عبوديته لله تعالى فقال لأبيه افعل فإنّ طاعة الله واجبةٌ وعلى العبد أن يصبر، وعلم إسماعيل أن الله حكيم فعليه أن يمتثل لأمره المخالف في ظاهره للرحمة، فأسلم وجهه لله رب العالمين غير سائلٍ عن وجه الحكمة لأنّ العبادة الحقيقية تتحقق بالطاعة مع عدم معرفة وجه الحكمة.

فما شاع في أيامنا من قولهم: إنّني لن امتثل أمر الله من لبس الحجاب أو غيره من الأوامر والنواهي حتى أعرف العلة، هو من ثمار عدم معرفة معنى العبودية.

فهم يظنّون أنّ الله كالطبيب يعرّفهم المرض ويصف لهم الدواء، فإن هم خالفوه لم يعاقبوا وإنما هم يلامون لأجل عدم أخذ الدواء وليس له أن يعاقبهم، والمصيبة أنّهم لا يسألون الطبيب عن كيفية معالجة الدواء

للمرض والعلة فيه، ولكن يسألون الله عن علة الحكم حتى يمتثلوا أمره، فهذا الصنف لا يرى الله رباً، بل يراه مرشداً عليه أن يقنعه بأوامره حتى يمتثلها، فلسان حاله: أنا لست عبداً لله تعالى حتى أطيعه طاعةً عمياء كما أطاعه إسماعيل وإبراهيم والحسين عليهم السلام.

قلت للشيخ: من فضلك أعد علي لعلّي أزداد فهماً.

قال: يا بنيّ صاحب الحاجة أعمى، فمن نظر من خلال حاجته من راحةٍ أو دفع ألم لا بد أن لا يرى وجه الحكمة، ومن نظر الى الكون وحكمة الله المتجلية به ونعمه علم أنّ الله رحيمٌ وحكيمٌ مطلق، وعلم أنّه لم يكن يعلم شيئاً وقد تعلم بعض الأمور التي يحتمل خطأ بعضها، فإذا نظر الى أمر وعرضت عليه شبهة أنّه مخالف للحكمة يحملها على جهله ولا يتهم ربّه، فاذا كان الأمر مثل الراحة أو الألم ينظر الى حكمة ربه فيرضى، ولا ينظر من خلال راحته وألمه فتحل به الشبهة.

إنّ من ينظر الى سنن الله في خلقه وينظر الى جهله وخطئه وعجلته وذنوبه ستتجلى في نفسه حالة خوفٍ من تقصيره وعصيانه، فحينها ينظر

بحكمةٍ فيرى ما حلّ بساحته من البلاء قليل، ويرى أنّه لله أن يفعل بعبده العاصي والمقصر ما يشاء وأنّه لو عامله بعدله لهلك ولأستوعب البلاء كل آنات حياته، وفي هذه الحالة ينير الخوف من ربه قلبه لانّ الغشاوة التي تحيكها الدنيا على قلبه تتمزق، وتذيب نار الخوف رين القلوب، وحينها يرى الحقيقة ويشعر بتقصيره ويلوم نفسه ويراها مستحقة للعذاب، ويرى لطف الله ورحمته به.

أسيرٌ نفسه أعمى البصيرة

ثم قال الشيخ: من كان أسير نفسه لن يرى الحقيقة، ومن كان أسير الحقيقة يرى الحقيقة بالنور، ومن كان أسير عبوديته وعظمة ربه سيرى الحقيقة واضحةً، ومن كان أسير نفسه سيحاكم ربه فلا تحل بساحته الا الظلمة والشبهة.

انظر الى من خاف الموت وشعر بقربه لمرضٍ أو حربٍ أو غيرهما، فإنّه لا يفكر بحاجاته التي كانت شغله الشاغل وكان يحاكم الله تعالى عليها، كنظرته الى استحقاقه الغنى والحؤول دون تحققه وهكذا، فخوفه

من الموت يهدم أحلامه ومشاغله فيصبح تفكيره في تفريطه في جنب ربه وفي اخطائه مع من حوله، ويطلب السماح، وهو الذي كان من قبل يدافع عن نفسه بكل حجة، فما عدا مما بدا؟.

والسبب أنه كان يفكر بحاجاته فحاكم الله تعالى من خلالها فشعر بظلم الله تعالى له لأنه لم يعطه الغنى مثلاً وابتلاه، ولكن حينما شعر بإمكان حلول الموت بساحته، صار همّه رضى ربه، فرأى عصيانه لربه وغفلته عن ربه وأقر بحقوق الآخرين التي كان ينفيها، فالقاعدة من نظر من خلال حاجاته حاكم ربّه وعباده واتّهمهم، ومن نظر الى حقوق الله تعالى عليه حاكم نفسه وحكم عليها بالتقصير والعصيان وباستحقاق العذاب والبلاء.

الأحلام، كما يبنيها المجتمع

ثم قلت: يا شيخ كيف يسير الناس في الحياة؟.

فقال لي: يا بني، إنّ الإنسان يتخذ في الحياة أحلاماً متأثراً بالمجتمع، فما يحترمه ويقدره المجتمع يصبح حلماً عند أفراده، والإنسان إمّا أن

يحلم بتقدير الناس فيسعى له أو يقدّر أمراً لتقدير المجتمع له فيزرعه في نفسه عبر التفكير به لشعوره بأهميته عندهم.

وهذه الأحلام تصبح أغراضاً مهمةً في نفسه، بل تصبح سعادته متوقفة على تحصيلها، فيصير الإنسان أسير أحلامه فتدور سعادته وتعاسته عليها، إذ قد زرعها في نفسه، وأضحت تسكن قلبه، فلا بد من أن يرى بلوغها من حقه.

وحينما تسير الأمور على خلاف هواه فلا يحقق أحلامه ستشعر نفسه بالظلم لذهاب حقها، وهذا يجعلها تتألم بشدة، فقد انسلخ من القلب ما زُرع فيه من أملٍ، فترتمي النفس في أحضان اليأس، ويحل بها القلق، فيضطرب ويضيق صدره حتى يصعب التنفس، فيشعر الإنسان بالاختناق ويتمزق قلبه ألماً ويحترق، فينهار الإنسان وتتلاشى قواه، فيشعر بأنّه ورقةٌ في مهب الريح تتقاذفه الهموم فترميه في نار الفراق والبعد عن أحلامه.

آثار الأحلام

وهنا تبدأ خواطر النفس السيئة في عدل الله بل يمكن أن تسري إلى التشكيك بوجوده تعالى والعياذ بالله، فيستغل ذلك إبليس ويحركها بوسوسته، فإذا سيطرت عليه تلك الخواطر حلّت المصيبة في روح العبد وأصبح متهماً لربه بالظلم وإن لم يتجرأ على التلفظ بخواطره، فإذا صلى لا يشعر بتوجه وتنفر نفسه من العبادات غالباً ويحتار في معرفة السبب.

والسبب يا بني، أن عدم الرضا بقضاء الله يقسي القلب وقاسي القلب بعيد عن الله تعالى.

الدنيا دار بلاء

فقلت: ما هو الحل للخلاص من هذه المصيبة الجلل أيها الشيخ؟.

فقال: إذا فهم العبد أن الدنيا دار بلاء وأنها ليست داراً لتحقيق الأحلام الدنيوية من جاه أو مال أو غيرهما، وعرف أنّ الغرض من خلق الدنيا وأهلها هو تجسيد العبودية لله تعالى بطاعته، وتنزيه ربوبيته تعالى في

تدبيره -جلت عظمته ووسعت رحمته العالمين، وسبقت رحمته غضبه فحل بالعباد عفوه وغفرانه-، ولهذا فالله تعالى يبتلي عبده بالفقر والمرض والجوع والموت، حتى يتصف الإنسان بصفات العبد وهي الذل بين يدي ربه والشعور بالفقر إليه والإقرار بعدم الحول والقوة الا به، ولهذا ورد في الرواية عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لولا ثلاث في ابن آدم ما طأطأ رأسه شيء: المرض والفقر والموت، كلهم فيه وإنه معهن لوثاب»[1].

فإذا فهم العبد ذلك عقلاً وزرعه في نفسه وقرره في قلبه، شعرت نفسه بقبح هذه الأحلام فيلوم نفسه على زرعها، ويوقن بوجوب نزعها، فيمكن له حينئذٍ أن يبدأ بنزعها، فإذا صمم العبد على نزع تلك الأحلام لقبحها، ستستريح نفسه ويهدأ قلبه فتخف الآلام عنه، وبعد فترة من الزمن تخف هذه الأحلام من النفس ويضمحل أثرها.

١ـ الخصال: ص١١٣.

لا يشغلك خوف الألم

نعم وإن بدأت مرحلة الراحة بمجرد إدراك العقل لقبح الأحلام وإرادة النفس لنزعها، ولكن الألم الذي شعرت به وقضّ مضجعها وجعل نهارها ليلاً وأخاط لها ثوبا من ألم الفراق فحط على كواهلها أحزان الدهور، فرماها في سجنٍ صغير صبّت قضبانه من أحلامها التي أذابتها حرارة البلاء، قد حفر في قلبها أخاديد لا تنسى وأشعل فيها نار خوفٍ من الألم، فيسيطر عليها ذلك الخوف، فنار الأحلام تخمد أو تختفي ولكنّ نار الخوف من الألم تستعر فيها ليلاً ونهاراً.

فالخوف من المستقبل يحرقها، قال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1] فوعد الفقر في المستقبل أو أيّ ألمٍ يجعلها تخاف فتتشاءم، فإذا عملت عملاً خافت الفشل، وإذا خرج لها ولد خافت عليه من أي أمر

١ـ البقرة: ٢٦٨.

يخطر في بالها، فيصبح هذا الخوف أرضها التي تمشي عليه حافية، فيذيب صبرها بناره ويلونها بكل الوانه، فكيف تهرب منه وهي تعيش عليه، فالتشاؤم هو عنوانها الدائم، والوسوسة أداته، والقلق والاضطراب والألم آثاره، فيا له من خوف لا تخبو ناره ولا تداوى حروقه.

قسوة القلب وعدم الرضا بقضاء الله

فإذا حلّ في النفس خوف الألم تصبح النفس غير راضية بوقوعه أبداً، وهذا عين عدم الرضى بالقضاء الإلهي، ومن لم يرض بقضاء الله تعالى قسا قلبه، وقاسي القلب عن الله بعيد، فيحل به ما هرب منه من آثار الأحلام، وإذا سيطرت على النفس تلك الخواطر حلت المصيبة في روح العبد، كما وصفت لك في حالة فوات الأحلام فيصبح متهماً لربّه ويَسِمُ نفسه بالمظلومية، فيدعو للخلاص ويصلي ولا يشعر بتوجه وتنفر نفسه غالباً من العبادات، فيحتار في معرفة السبب.

والسبب يا بني، أنّ عدم الرضا بقضاء الله يقسي القلب، وقاسي القلب بعيد عن الله تعالى.

فقلت: يا شيخنا، ما هو الحل لهذه البلية؟

قال لي :يا ولدي، الجهل وعدم الرضا هو السبب لما آلت اليه الأمور، ففي البداية جعلت النفس الأحلام آمالاً تريد تحققها، ولمّا انهارت الأحلام حلّت به الآلام، فكان سببها الجهل، فقد اراد الدنيا داراً للأحلام وهي دار امتحان وبلاء، وهذا الذي سبب له تلك الآلام، وحينما رضي بذهاب أحلامه استراح من نارها، ولكن بقي خوف الألم يحرقه بناره، وخوف الألم منشؤه خوف وقوع أمر يسبب الألم مثل الفقر أو غيره من الأمور فألمها سرابٌ حقيقة وواقعاً، فهي نار لم توجد بعد فكيف تحرق، وإذا رضي العبد بقضاء الله في هذه الأمور، ثم دعا الله تعالى بعدم وقوع البلاء وسلم أمره لله تعالى استراح، وإذا أصبح غرضه رضا الله زادت راحته النفسية وإن لم يرتفع البلاء الخارجي.

فعلى العبد أن يرضى بقضاء الله تعالى وأن يعلم بأنّ الله لم يبتله بما يستحقه بعصيانه وتقصيره، وهذا ما يمنحه الراحة.

فإنّ من عمل ما يستحق عليه السجن سبعة أعوام وقد ترفق القاضي بحاله وحكمه سنة تراه فرحاً بهذا الحكم لأنه شعر بالرحمة، أما إن ظن أنه لا يستحق السجن أو يستحق السجن شهراً وحكم بسنة سيراه ظلماً.

وهكذا فيما نحن فيه فإن رأى المرء أنّ الله ابتلاه وهو لا يستحق البلاء وكان مع ذلك يرى أنه عبدٌ عليه أن يصبر على أمر مولاه أو يطيعه فيما أمر، سيرى نفسه متحمّلة لحكم الله تعالى فتشعر نفسه عندها باللوم لله على هذا الحكم على أقل تقدير، وهذا سخطٌ على القضاء وتنزيهٌ للنفس عن الذنوب والأخطاء والتقصير، وهو بلاءٌ عظيمٌ أن يحاكم العبد ربّه وينسى حقارة نفسه المستحقة لأضعاف مضاعفة من العذاب والبلاء، بل لو فهم العبد معنى العبودية لله تعالى لفعل ما فعل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وعليه يا ولدي إذا زرع العبد في نفسه أنه يستحق البلاء الشديد والعقاب كذلك رأى بلاءه قليلاً، وإذا عرف أن البلاء اختبار لعبوديته

رضي بالقضاء ودعا الله تعالى أن يوفقه للصبر الجميل، وشكر الله تعالى على توفيقه للرضا، وتوكل على الله تعالى شاعراً بضعفه وبعون ربه له.

قد يؤذينا الناس بغير حق

فقلت: أيها الشيخ هل يستريح من هذه حالته؟

فقال لي: يا ولدي إذا سيطرت على العبد هذه الفكرة لأنه زرعها في نفسه ورضي بها قلبه استراح.

ولكن بعض الأحيان يسيطر على العبد ألم بلاءٍ من نوع آخر، كأذية بعض من حوله أو غيرهم من الأشخاص، خصوصاً إذا لم يكن قد صدر منه أذية لهم، أو كان قد أحسن إليهم وهم يؤذونه، فيصبح همّه إثبات حقه ويدخل في متاهة الوسائل ويتدخل إبليس بجرّه الى خطاه اللعينة بعنوان إثبات الحق.

فإذا سيطر عليه الألم انحصر توجهه إليه، وعادت النفس إلى ما خرجت منه من الشعور بالظلم واللوم اللاشعوري لله تعالى، ولا يلتفت إلى الفكرة المتقدمة لاستغراقه بالألم، وهذا معناه عدم الرضا بقضاء الله تعالى

فتعود قسوة القلب ويعود البعد عن الله تعالى، وينظر إلى نفسه أنّه مظلوم، ولا ينظر أنّ البلاء يهون في رضا المولى الرحيم كما قال الإمام الحسين عليه السلام: «هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله»[١]، وينسى أنّ الدنيا ليست دار العدل والحساب وأنّها دار البلاء والفتنة والاختبار.

وغالب من يتخلص من الحال الأولى يعلق في الثانية وهو غير ملتفت لاستغراقه، ولا يعرف سبب بعده عن الله تعالى.

يا بني، لن يذوق طعم الراحة معترضٌ على الله تعالى غيرُ راضٍ بقضائه، في الحديث الشريف: «إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا»[٢]، وهذه هي القاعدة الذهبية لمن أراد الراحة النفسية والقلبية والروحية والعبودية لله العظيم.

١ـ اللهوف: ص٦٩.

٢ـ الكافي: ج٢ ص٥٧.

الشفقة على الناس

يا بني إذا سار العبد في طريق الله تسيطر عليه الرحمة فيشعر بالرحمة الشديدة لمن حوله، ولا يعود يريد أخذ حقه من الآخرين، بل يريد هدايتهم، كالأم مع ولدها إذا أخطأ ولدها تسعى وتدعو لهدايته ولو دعت عليه حين غضبها تندم للرحمة الموجودة في قلبها.

وعندما تشتد الرحمة في القلب تنبعث النفس في رفع الأذية عن الآخرين، وإذا لم تقدر تصاب بعدم الرضا لسيطرة الرحمة على القلب، وهي لا تدري بعدم الرضى لأنّ العنوان هو الرحمة، فقد ألبست ما ترومه رداء القداسة، فيضيق الصدر ويعود الحزن وعدم القرب من الله تعالى كما كانت في الحالتين السابقتين فتحتار، والسبب هو أن الرحمة للأخرين يجب أن ترافق العلم بأنّ الله يبتلي عباده، فكما فكّرت فيما خصّ نفسك بالبلاء، عليك أن تفكر في غيرك، فتسعى في خلاصه وترحمه، ولكن فلتعلم أنّ الله يفعل ما يشاء وأنّ الله رحمهم بهذا البلاء لغفران ذنب أو رفعة منزلة أو لتقصيرٍ أراد ربّك أن يجبره أو ليعلم عبده بالتجارب والآلام،

فالرحمة يجب أن تكون تحت عنوان العبودية كما حدث في عاشوراء، فكم كانت رحمة الإمام عليه السلام يومها بأولاده وحزنه عليهم؟، ولكن كل هذه الرحمة كان فوقها التسليم لأمر الله تعالى، وكان عليه السلام في كمال الرضا بالقضاء، وفي الحديث أنّ الله تعالى عناه عليه السلام بقوله: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[1].

هنا، بدأ الناس بالتوافد الى منزل الشيخ لحضور مجلس العزاء الذي يقيمه الشيخ في داره بين فترة وأخرى، وبعد أن انتهى المجلس عدت الى منزلي شاكرا الله تعالى على ما استفدته في هذه الجلسة، وصرت أشعر باطمئنان في نفسي لم أكن قد شعرت به من قبل، ولمس أهلي ذلك مني في تصرفاتي.

---

١ الفجر: ٢٨.

لم يمض اكثر من أسبوع حتى عدت لزيارة الشيخ، ولست انسى أنها كانت ليلةً عاصفة، ففتح لي الباب ولده الأصغر باقر، ووجدت عنده رجلاً.

النظر الى نعم الله واحسانه

وبعد حديث الإطمئنان عن النفس والأهل، قال لي الشيخ: إنّ الباب الأساسي للدخول في عبادة الله هو تحريك ما في فطرة الإنسان، حتى يكون المحرك للعبد جبلّي لا تعارضه النفس بل تتشوق إليه، فيكون السير سهل بذاته، وهذا الطريق هو طريق المحبة من باب الإحسان، فالقلوب مفطورة على حب من أحسن اليها.

وقد وصف الإمام زين العابدين عليه السلام الطريق بأحسن وصف بقوله: «وعجزت عن نعته أوهام الواصفين، إبتدع بقدرته الخلق ابتداعاً، واخترعهم على مشيّته اختراعاً، ثم سلك بهم طريق إرادته، وبعثهم في

سبيل محبته لا يملكون تأخيرا عما قدمهم إليه، ولا يستطيعون تقدما إلى ما أخرهم عنه»[١].

فقد فطر الله الإنسان على حب من أحسن إليه وكان الله تعالى هو المحسن الحقيقي الى عباده، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢] فكلُّ نعمةٍ في عالم الوجود هي من الله تعالى، وإن أدرك العبد نعم الله عليه وشعر بها لابد أن يستغرق في حب الله تعالى، فهل ثَمّة بعثٌ أعظم من ذلك.

ولكنّ العبد إما أن يجهل نعم الله عليه أو لا يشعر بها لاستغراقه بالدنيا، والأخطر من ذلك أن تستولي حاجته من الدنيا على قلبه، فهنا تنقلب القضية فيعمى عن نعم الله عليه بل يرى أن من الواجب على الله أن يحقق له رغباته كلها، فلا يرى نعمة من النعم الإلهية وينحصر نظره الى حاجته، كحال الطفل لو جلبت له ألف لعبة وكان يريد لعبةً أخرى وأنت لم تأت

١ـ الصحيفة السجادية: ص١٧.

٢ـ النحل: ١٨.

بها لأنها تضره أولا تناسبه لا يراك إلّا مقصّراً في حقه وتبدأ حالة البكاء وذلك بحسب حبه لها أو دلاله على والديه.

والانسان لا يرى كل تلك النعم بل يحصر تفكيره وقلبه في حاجته الدنيوية فلا يرى لله عليه فضلاً في نفسه بل يراه في سريرته ظالماً له وإن لم يقل ذلك، والدليل أنّ خواطره: "لماذا لم يعطني الله هذا الامر"، ويشكك في قضائه ومن الممكن أن يشكك في وجوده تعالى لأنّ الإنسان مفطورٌ على أنّ الإله عادل فإذا شكك في عدل الله تعالى انسحب هذا في أحيان كثيرة الى وجوده تعالى.

انشغال الانسان بحاجاته يعمي ويصم

فكلُّ إنسان همّه حاجاته لابد أن يرى غيره مقصراً في حقه، ومن هنا نرى الولد المدلّل ينظر إلى والديه أنّهما ولداه وعليهما أن يؤمّنا له كل ما يحتاجه وإلا فهما مقصران، ويظن أنّه صابرٌ عليهما كأنّ له الفضل، وهذه النظرة نفسها يجريها البعض على الله تعالى فينظر الى الله تعالى بما هو قاضي حاجات لا بما هو رب وإله.

فسألت الشيخ: لماذا أكثر الناس حبها لله صوري لا حقيقة له؟.

فقال: عدم حب الله لأمور:

أولها: الجهل بأن المنعم هو الله، لشبهة أو غيرها.

ثانيها: حصر النظر بالحاجة، فإنه يورث العمى عن النعم.

والثالث: الاستغراق بالدنيا، فيلزم منه الغفلة عن الله تعالى، مثل الطفل حينما يكون مستغرقاً في اللعب لا يلتفت إلى والديه مع أنه يعرف أنّ لعبته من والديه، ومن هنا يقول الامير عليه السلام: «من أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته»[1] فمن نظر إلى ملذات الدنيا يصبح أعمى لا يرى الله إلا بمقدار ما يحتاج اليه في تحصيل دنياه، ويترتب على ذلك عدم الرضا في نفسه إذا لم يعطه الله ما يريد، ويدور حسن الله عنده على قضائه لحاجته.

١ـ نهج البلاغة: ج١ ص١٣١.

يا بني «إنما مثل الدنيا كمثل الحية، ما ألين مسها وفي جوفها السم الناقع، يحذرها الرجل العاقل، ويهوى إليها الصبي الجاهل»[1] كما قال الامير عليه السلام، فمن نظر إلى زينتها هوى إليها كالطفل، ومن عرف سمّها الناقع هرب منها، فهل من رحمة الله بك أن يعطيك ما به هلاكك؟

الشعور الحقيقي بأن المنعم هو الله

قال له ولده باقر: يا أبي، كيف نشكر الله تعالى على نعمه؟.

فقال الشيخ: لا يحمد الله حقيقة إلا من شعر أنّ الله هو الذي أنعم عليه، فمن حمد الله على أمر يشعر أنه هو فاعله مثل من كان بكلامه حلٌّ لمشكلة أو هدايةٌ لأشخاص وقال: "الحمد لله" فإذا كان يشعر أنه هو من حسّن الكلام والبرهان وشعر بالزهو وأنّ على الآخرين شكره وانتظر المدح في نفسه وكان ينظر إلى الوجوه لمعرفة تأثير كلامه، فهذا شخص حمده صوري لا يرجع إلى شيء من الحقيقة.

١ـ الكافي: ج٢ ص١٣٦.

ولكن من يشعر أن كلامه بتوفيق من الله تعالى تنبعث روحه لحمد الله تعالى ويشعر بالخشوع لله تعالى، وكلما علا إيمانه خاف من تقصيره وشعر أنّه غير مستحقٍ لهذا الفضل الربّاني، فيرتمي قلبه في محبة الله تعالى وتلف روحه حالة من الغبطة وتتوجه الى الله لحد البكاء ولسان حاله: من أنا يا رب حتى تكرمني وأنت الغني عني، فضلك لا ينسى يا حبيب من تحبب إليك.

وهذه النظرة هي التي تستجلب الحب من جهة الاحسان، واذا تحرك هذا الحب سيحرك الحب الكامن في الروح، فالروح جاءت من الملأ الأعلى، وهي تميل الى ذلك العالم بفطرتها، ولقد أقرت بربوبية الله تعالى وهذا يبقى فيها، فالروح تطمئن لما أقرت به، فإنّ أرفع الأمور تأثيراً ما يقر في الأرواح إذا برز إلى خارجها، ولهذا قالت الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] والأرواح إذا صفت

١ـ الرعد: ٢٨.

شعرت بوحشة من عالم الدنيا فقد «أنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى»[١] كما قال الأمير عليه السلام، فكيف يصبرون على هذه الدنيا؟، ومن هنا يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا»[٢].

الآثار السلبية للتعلق بالشهوات

فسألته: لماذا لا نشعر بهذا الحب إلا بنحو ضعيف وفي بعض الأزمنة؟.

فقال: في الحديث القدسي: «إنّ القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني»[٣]، ولكن في بعض الأحيان تذهل النفس عن الدنيا فتشعر بشيءٍ من حب الله تعالى، كمن يذهب إلى زيارة الأئمة عليهم السلام فيذهل عن الدنيا لتوجهه الشديد للزيارة، فيشعر بتلك الروحانية والقرب

١ـ نهج البلاغة: ج٤ ص٣٧.

٢ـ الصحيفة السجادية: ص٤١٣.

٣ـ الجواهر السنية: ص٨٩.

والحب لله تعالى، وحينما يعود من زيارته لا يلبث أن يتحرك حبه للدنيا وأنسه بها فيعود إلى سابق عهده، ويتساءل عن سبب ذهاب تلك الحالة.

هل تركت النفس أحلامها؟

فقال له الرجل: شيخنا، إنّ ما ذكرته عين الحقيقة، فحينما وعظتني منذ مدّةٍ شعرت بالحب لله تعالى وغمرت قلبي الرحمة للناس، وتحركت عواطفي وحركتني للعمل، وشعرت بطمأنينة عجيبة في روحي وغمرتني السعادة.

إنها أوقات لا تنسى فقد كنت حينها كأني أطفو على الماء، وتحركت إرادتي لطاعة الله وصار الدعاء يخرج من روحي، وكان الشوق يحرّكني فما اصابني وقتها مللٌ، وفتحت بصيرتي فصرت أرى الكون بنظرة أخرى، أضحى كل ما فيه ينطق ويخبرني بنعم الله تعالى ورحمته فتنهمر دموعي على خدي فتناديني نفسي: لما حرمتني هذا الخطاب الذي تسمعه روحي وتنشره عطرا على جوارحي؟

ولكن أيها الشيخ لماذا ذهبت عني هذه الحالة، وإنّي أسعى خلفها ولكنها تفوتني، بالله عليك قل لي لماذا نزعت مني وما سبيل رجوعها؟.

فقال الشيخ: إنّك حينما شعرت بالألم الذي سببته الأحلام نفرت من أحلامك، وهذا الأمر جعل النفس تتجه الى الله تعالى من خلال النظر الى نعمه فترى إحسانه فتحركها الفطرة إلى حبه لإن الانسان مفطور على حب من أحسن إليه، وحينما شعرت النفس برحمة الله العظيمة التي تحير الألباب زاد الشوق الى الله تعالى، والسير إلى الله تعالى قصير المسافة، فتشعر النفس بالقرب من الله تعالى وتسري فيها انوار من الرحمة تغمر الروح وتترشح على العباد، فكل من يتصل بالله تعالى بحق يتصل بحبيبه محمد ﷺ وهو نبي الرحمة فتتأثر روحه بالرحمة.

يا بنيّ حين دخل الشوق نفسك تحركت لربها فشعرت بالراحة والسعادة، وما كان هذا منها الا لأنها نفرت من أحلامها ولكنّ هذا النفور لم يكن من نفس الأحلام وانما كان من الآلام التي تسببت بها الأحلام، فلمّا زال الألم شعرت النفس بالراحة وعاد اليها طلب الأحلام والاهتمام

بها فهي ما زالت ترى بها كمالها ولذتها، فعادت بعودها الحجب عن الله تعالى.

فالذي جعلها تترك احلامها هو الألم، وأمّا وقد ارتفع فقد عادت الى أحلامها.

ومن جهة أخرى إنّ من ترك الدنيا وتوجه الى الله تعالى سيعود بعد مدةٍ الى الشوق للدنيا، مثل الإنسان الذي يذهب من بيته إلى بيت قريبه الجميل فيستريح وبعد فترة يشعر بالشوق للعود للبيت حتى يستريح مع أنّ المكان الذي يجلس فيه هو أجمل وأكثر ملاءمة، والسبب أن نفسه اعتادت الجلوس في البيت والعادة تورث أنس، والأنس يورث راحة نفسية والإنسان يحب الراحة النفسية، والحب يورث شوقاً وهذا يحرك العبد الى المحبوب، فلو تضايق الإنسان في بيته يتركه ويذهب ويكره الجلوس فيه ولكن بعد فترةٍ يستريح فيشعر بالرغبة للعودة الى بيته، وهذا أمرٌ مجرب، وكذلك من يجلس في مكان معين في الغرقة تراه إذا دخل

جلس في ذلك المكان دون غيره فهو يستريح فيه لأنسه الناشئ من العادة.

وهنا هذا الذي يحصل فحينما تألمت من طلب الأحلام تركتها وتركت طلب الدنيا، لإن الأحلام هي ذروة الدنيا عند الإنسان، وحين استرحت عاد الشوق للدنيا، فأصبحت تشعر باللذة بأي أمرٍ من أمور الدنيا لأن الروح تعافت وكما يقال "إنما طيبته العافية"، فمن يعاني الألم لا عافية له فهو مريض لا يستطيع أن يشعر باللذة، وهذا يزيد شوق النفس للدنيا فحينئذ يخسر المرء التوجه الى الله تعالى فتذهب تلك السعادة والفرحة والقرب وهنا يشعر بحيرة ، فترك الدنيا حقيقةً قد ذهب، والتوجه الى الله قد زال، ولكن تبقى النفس متوجهة بنسبة ضعيفة الى الله، وهنا يرى نفسه ابتعد عن الله تعالى، وهو لا يحب هذا البعد فهو يريد العودة ولكن نفسه تمنعه من ذلك من حيث لا يدري، فانشداد النفس للدنيا من جديد يجعلها تبتعد عن الله تعالى وهنا سيعود الخيال الى الساحة خصوصا في الصلاة.

ولمّا كانت النفس قد ذاقت حلاوة القرب من الله تعالى تعجلت العودة اليها، وهي لا تستطيع ترك ما زرعته من حبّ الدنيا وهذا يمنعها من العودة الى القرب من الله تعالى، فيقع الصراع بين الامرين بشدة فيمنع من توجه النفس نحو الله تعالى، وهنا تبدأ مرحلة من اللوم والندم وتكون شديدة ويقع المرء في حالة من الضياع لعدم الوصول الى ما كان عليه، ولا يلتفت الى أنّه تقدم في القرب من الله تعالى، فالذي فقده جزء من الحالة لا كلّها، فهو كان متوجهاً بشدةٍ الى الدنيا أمّا الآن فقد هان الخطب لأنه توجه الى الله تعالى، وإن كان بنسبةٍ أقلّ مما كان عليه.

ولكن لشدة طلبه للقرب الذي منحه سعادةً ما عهدها من قبل، أصبح القرب حلماً لأجل تلك السعادة، فإذا لم يصل يشعر بالخيبة، فهو عملياً قد بدّل الحلم ويريد حصوله بالكيفية التي تأنس بها نفسه فإذا لم يصل كما يريد، يرى خسرانه مبيناً ويصبح الأمر بهذه الكيفية حاجةً، وصاحب الحاجة أعمى فلا يرى إلا حاجته، وهو لم يصل إليها فلا يلتفت الى ما أعطاه الله الكريم من قرب لم يكن عنده ولا يشعر بنعمة الله عليه، بل يشعر

بحرمانه من حلمه الذي كان بين يديه و تصعب حالته ويصبح مزاجه سوداوياً فيُترجَم قلقاً واضطراباً، ولكن لو فكر بما أعطاه الله من قرب لشكر الله تعالى، وعليه أن يعلم أنّ هذا الأمر لا يحدث دفعةً واحدة بل يتأرجح بين الصعود والنزول وهو يحتاج الى وقت وصبر حتى يثبت.

لكنه استعجل الوصول واستغل إبليس هذه العجلة ليبعّده عن طريق الله عز وجل، وهو لا يصل بسرعة لإنّ هذه الطريق تحتاج الى وقت وصبر، وهي طريق يطهر الله فيها المؤمن بالبلاء ويمتحنه، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1]، والعجلة تفسدها وهذا يجعله متألّماً مهموماً ولا يشعر بنعمة الله تعالى حتى يشكر.

وفي هذه الحال تعود النفس للوم الآخرين فتلومهم حتى على تقصيرها لأنها تحب أن تنزّه نفسها عن كل نقص، ولهذا تراها إذا صنعت قبيحاً بررت فعلها بفعل غيرها، وإذا فعله غيرها حمّلته سوء الفعل من غير

١ـ العنكبوت: ٢.

عذر، وهذا نراه من أنفسنا فإننا حتى نحتاج لوقت كبير وأدلّة كثيرة حتى نقتنع بأخطائنا، أمّا أخطاء غيرنا فيكفي فيها دليل واحد ولا تحتاج إلى وقت وإعمال فكر، وهذا حال الانسان فهو ينزه نفسه.

ضعف الارادة

وإذا رأى نفسه ضعفت عن مقاومة الدنيا يتوجه نحو اليأس وتضعف إرادته، فإذا ضعفت الإرادة تاه الإنسان في الحياة إلى درجة الضياع، فيسير في الحياة بما هو ضروريٌ، فلا يسعى الى هدفٍ إلّا على نحو الأمنية أي الهدف البعيد الحصول، فلهذا تُشَلُّ حركة الإنسان فيعيش بلا روحٍ، وهنا تضعف الروح وتتجه إلى الرتابة واللوم والشعور بأنّ الله تركها، وهذا يحدث فيها حالة من الانهيار، وقد تتجه في هذه الحالة الى الاعتراض على الله تعالى، فإذا التزمت باعتراضها ابتعدت عن الله تعالى وقد تصل إلى حد الكفر بالله العظيم، وإن كانت فطرتها سليمة وعقلها قوياً في قراره فيبقى الإنكار باطناً لا يبرز الى الخارج ولكنّه يترجم بعدم الرغبة في الدعاء وعدم التوجه في الصلاة وحب الخمول.

بث الارادة

قلت: يا شيخ ما الحلّ لهذا البلاء العظيم؟.

فقال الشيخ: إنّ الحلّ في بثّ الإرادة في روح العبد، فإذا اشتدّت الإرادة سيّرت النفس وطوعتها.

لكنّ الكلام في كيفية إعادة الإرادة، فإنّ إعادتها من خلال الثقة بالنفس قد تنفع من جهةٍ ولمدة زمانية محدودة، فمن جهة العمل الدنيوي قد يتحرك المرء لأنَّ المشكلة لم تكن بالنفس بل بالظروف الخارجية، فهذه الثقة قد تدب في النفس الحياة، ولكن إذا عاكستها الظروف ستتفاقم المشكلة، وهذا ما يحدث غالباً، نعم إذا تقبّل الخسارة لن تتطوّر حالته، ولكن ستحتاج النفس الى شحذ الهمة من جديد للعمل.

هذا من جهة الأعمال الدنيوية، وأما من جهة العبودية فإنّ الخطب يشتدّ إذا أراد العبد تحريك إرادته للطاعة من خلال الثقة بالنفس، لأنّ النفس تميل الى الشهوات فالمخالفة صعبةٌ من جهة نفسها، فتريد أن تخالف هواها، أما بالنسبة للأهداف الدنيوية فالنفس تريدها والفراغ يدعو

للفضول والفضول يدعو النفس لملء الفراغ بما تحب فتتجه نحو الشهوات، خصوصاً إذا كانت سهلة المنال مثل اللهو على صفحات التواصل الاجتماعي، وخصوصاً الشباب فهذه مشكلة واقعاً، فإذا أخذه الفضول قتله اللوم ووقع في حيّز الألم، وفي هذا الحالة تعتاد النفس على ذلك فيسقط الحاجز النفسي فيصبح الوقوع أسهل والعادة تورث أنساً.

فقلت له: يا شيخ هذه حال أكثر الشباب فما العمل؟.

فقال لي: يا ولدي يحتاج الإنسان إلى شحذ إرادته حتى تقوى، ويجب أن يقع الخوف في نفسه والرغبة في جهادها والخوف من البعد عن الله تعالى.

هكذا يكون الحر

اذكر يا بني ما حدث مع الحر الرياحي في كربلاء حينما أخذ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً، فقال له المهاجر بن أوس: ما تريد يا ابن يزيد، أتريد أن تحمل؟

فلم يجبه وأخذه مثل الأفكل - وهي الرعدة - فقال له المهاجر:

إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا، ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك؟! فقال له الحر: إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قطّعت وحرّقت[1].

فالحر كان قائداً على أربعة آلاف فارس، وكان وجيهاً في الكوفة فإذا دخل مع الإمام الحسين عوقب أهله وزال جاهه وسيموت، إنّه موقفٌ صعب فهو سيترك الدنيا وجاهها الذي طالما سعى له وحلم به، وكأنَّ هذا الأمر جعله يجعجع بقافلة الإمام الحسين عليه السلام، وسيضع رقبته على حد السيف وهو يرى القتل المحتوم مع المولى عليه السلام.

أمّا أهل الكوفة فهم من أرسل الرسائل للمولى عليه السلام، وحينما علموا أنّهم إذا نصروا الإمام عليه السلام سيعرِّضون دنياهم للهدم أو رقابهم للسيف اضطربت أنفسهم، وخافوا على دنياهم التي زرعوا حبّها في نفوسهم فتربعت على عرش قلوبهم، فإذا فكّروا بنزع الدنيا منها انهاروا وتلاشت

١ـ الارشاد: ج٢ ص٩٩.

قواهم وأصبحوا كالأموات، فهزمتهم الدنيا وسيّرتهم في ركبها فأصبحوا أذلاء ليزيد بن معاوية لعنه الله.

ولكن الحر اختار رضى الله تعالى وجنته ونزع الدنيا من قلبه، وقد كانت جذورها مستحكمة في نفسه فأصبح يرتجف جسمه لشدة النزع ففاز بفخر الدنيا وجاه الاخرة.

وأنت أيها العبد أتترك الدنيا تجرك فتجعلك من الهالكين لقليل الشهوة وأنت تذم أهل الكوفة وقد كانت دنياهم كلّها بخطر، فأنت الآن أضعف منهم حرّك إرادتك لله تعالى وتوكل على الله، وكن حراً في دنياك من شهواتك وهواك، وأطع مولاك عجل الله له الفرج كي لا يشتد ضعفك فتصبح من الهالكين.

فإذا صمّمت وأردت وعزمت وحزمت تلاشت قيود الشهوة من نفسك وانطلقت روحك الى الله تعالى، فتعود إلى رحاب الله وتستريح الروح في عالمها، وتندم لماذا سيّرتها في دنيا لأجل حيوانيتك، فكم قذّرت نفسك ولوثتها لأجل شهوةٍ في لذتها إثمٌ وعاقبتها ندمٌ، وأنت

تستحي من فضيحتها امام الناس، ولا تستحي من الله تعالى وهو يراك ويرى حيوانيتك ألا يردعك كلّ هذا، يا من يدعي أنّه إنسان وأنّه عبد لمولاه وهو عبد لشهوته وهواه.

إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين

حينما قال ذلك شعرت بذلٍّ يلفّ كياني، واقشعر بدني واحتقرت نفسي واستحييت من نفسي، ولم أتمالك نفسي فبكيت، وأصبحت نفسي تنظر بعين الندم والحسرة على سوء ما فعلت، وغضبت على نفسي كيف رمتني في عصيان الله تعالى فلم أشكر إحسانه بل تعديت على جلاله بمعصيتي، فصمّمت على حربها وكسرها ورأيت قبحها، فكسرت الأغلال التي قيدتني بها فتحررت روحي من أسرها، فشعرت بلذة التوبة وطعم الرحمة وحلاوة المحبة، فالله يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[1]، ففي لحظة تبدّل حالي وشعرت بالقرب من الله تعالى، وأصبح

١ـ البقرة: ٢٢٢.

الندم يأكلني، كيف عصيت هذا الإله الرحيم، وشعرت بحبٍ يتقدم بي إليه تعالى، لقد اجتمع فيَّ حبٌ وندم، فرحةٌ وألم، فنويت أن لا أعود لمثلها أبداً.

نماذج من الدعاء

فقال لي الشيخ: ادع معي بدعاء التوبة للإمام زين العابدين عليه السلام:

«هذا مقام من تداولته أيدي الذنوب وقادته أزمة الخطايا، واستحوذ عليه الشيطان، فقصّر عما أمرت به تفريطاً، وتعاطى ما نهيت عنه تغريراً، كالجاهل بقدرتك عليه، أو كالمنكر فضل إحسانك إليه، حتى إذا انفتح له بصر الهدى، وتقشعت عنه سحائب العمى، أحصى ما ظلم به نفسه، وفكر فيما خالف به ربه، فرأى كبير عصيانه كبيراً وجليل مخالفته جليلاً، فأقبل نحوك مؤمّلاً لك مستحيياً منك، ووجّه رغبته إليك ثقةً بك، فأمّك بطمعه يقيناً، وقصدك بخوفه إخلاصاً، قد خلا طمعه من كل مطموعٍ فيه غيرك، وأفرغ روعه من كل محذور منه سواك، فمثل بين يديك متضرعاً، وغمض بصره إلى الأرض متخشعاً، وطأطأ رأسه لعزتك متذللاً، وأبثك

من سره ما أنت أعلم به منه خضوعاً، وعدّد من ذنوبه ما أنت أحصى لها خشوعاً، واستغاث بك من عظيم ما وقع به في علمك وقبيح ما فضحه في حكمك من ذنوبٍ أدبرت لذاتها فذهبت، وأقامت تبعاتها فلزمت.

ولا ينكر - يا إلهي - عدلك إن عاقبته، ولا يستعظم عفوك إن عفوت عنه ورحمته، لأنك الرب الكريم الذي لا يتعاظمه غفران الذنب العظيم، اللهم فها أنا ذا قد جئتك مطيعاً لأمرك فيما أمرت به من الدعاء متنجزاً وعدك فيما وعدت به من الإجابة إذ تقول: ادعوني أستجب لكم.

اللهم فصل على محمد وآله والقنى بمغفرتك كما لقيتك بإقراري،

.....

وقد قلت يا إلهي في محكم كتابك إنك تقبل التوبة عن عبادك، وتعفو عن السيئات، وتحب التوابين، فاقبل توبتي كما وعدت، واعف عن سيئاتي كما ضمنت، وأوجب لي محبّتك كما شرطت.

ولك يا رب شرطي ألا أعود في مكروهك، وضماني أن لا أرجع في مذمومك ، وعهدي أن أهجر جميع معاصيك.

اللهم إنّك أعلم بما عملت فاغفر لي ما علمت، واصرفني بقدرتك إلى ما أحببت.....

اللهم وإنه لا وفاء لي بالتوبة إلا بعصمتك، ولا استمساك بي عن الخطايا إلا عن قوتك، فقوّني بقوةٍ كافية، وتولّني بعصمةٍ مانعة.

اللهم أيما عبد تاب إليك وهو في علم الغيب عندك فاسخٌ لتوبته، وعائدٌ في ذنبه وخطيئته، فإني أعوذ بك أن أكون كذلك، فاجعل توبتي هذه توبةً لا أحتاج بعدها إلى توبة، توبةً موجبةً لمحو ما سلف والسلامة فيما بقي.

اللهم إنّي أعتذر إليك من جهلي، وأستوهبك سوء فعلي، فاضممني إلى كنف رحمتك تطولاً، واسترني بستر عافيتك تفضلاً.

اللهم وإنّي أتوب إليك من كل ما خالف إرادتك أو زال عن محبتك من خطرات قلبي ولحظات عيني، وحكايات لساني، توبةً تسلم بها كل جارحة على حيالها من تبعاتك، وتأمن مما يخاف المعتدون من أليم سطواتك.

اللهم فارحم وحدتي بين يديك، ووجيب قلبي من خشيتك، واضطراب أركاني من هيبتك، فقد أقامتني - يا رب - ذنوبي مقام الخزي بفنائك، فإن سكتّ لم ينطق عني أحد، وإن شفعت فلست بأهل الشفاعة.

اللهم صل على محمد وآله، وشفّع في خطاياي كرمك، وعد على سيئاتي بعفوك، ولا تجزني جزائي من عقوبتك، وابسط عليّ طولك، وجللني بسترك، وافعل بي فعل عزيزٍ تضرّع إليه عبدٌ ذليل فرحمه، أو غني تعرض له عبد فقير فنعشه.

اللهم لا خفير لي منك فليخفرني عزّك، ولا شفيع لي إليك فليشفع لي فضلك، وقد أوجلتني خطاياي فليؤمني عفوك، فما كل ما نطقت به عن جهلٍ مني بسوء أثري، ولا نسيانٍ لما سبق من ذميم فعلي، لكن لتسمع سماؤك و من فيها وأرضك و من عليها ما أظهرت لك من الندم، ولجأت إليك فيه من التوبة، فلعل بعضهم برحمتك يرحمني لسوء موقفي، أو تدركه الرقة عليّ لسوء حالي، فينالني منه بدعوةٍ هي أسمع لديك من دعائي، أو شفاعةٍ أوكد عندك من شفاعتي تكون بها نجاتي من غضبك

وفوزتي برضاك، اللهم إن يكن الندم توبةً إليك فأنا أندم النادمين، وإن يكن الترك لمعصيتك إنابةً فأنا أول المنيبين، وإن يكن الإستغفار حطةً للذنوب فإنّي لك من المستغفرين.

اللهم فكما أمرت بالتوبة وضمنت القبول وحثثت على الدعاء ووعدت الإجابة فصل على محمد وآله، واقبل توبتي، ولا ترجعني مرجع الخيبة من رحمتك، إنّك أنت التواب على المذنبين والرحيم للخاطئين المنيبين.

اللهم صل على محمد وآله كما هديتنا به، وصل على محمد وآله، كما استنقذتنا به، وصل على محمد وآله صلاةً تشفع لنا يوم القيمة ويوم الفاقة إليك، إنك على كل شيءٍ قدير، وهو عليك يسير»[1].

فكان الشيخ يدعو وانا أغيب في تلك الكلمات التي رسمت التوبة رسماً فاق تصوري فأصبحت مبهوراً من عظمة ما سمعت.

فقلت: أيها الشيخ ما هذا الدعاء العجيب؟!

١ـ الصحيفة السجادية: ص١٥١.

فقال لي: يا بني هذه أدعية أئمة الهدى عليهم السلام، فإنّها آية في من آيات الله نطقت بها السنتهم الشريفة، وأنت يا بني تأثّرت بها لأنّها رسمت حالك ونطقت بلسانك فأصبحت وكأنّك خلقت من جديد.

ثبات الأمور يحتاج الى جهاد وصبر

ثم سألته: كيف نحافظ على هذه الحالة؟

فقال لي: قد تكلمنا يا بنيّ عن الأحلام وأنّ من يسعى للوصول يتأرجح صعوداً ونزولاً على اختلاف المراحل فلا تثبت الأمور فوراً بل تحتاج إلى جهادٍ وصبر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ومن ترك الحلم أو الشهوات وأراد الوصول فسعى لذلك إذا أراد فعل مستحب ولم يستطع لمرض أو غيره تحدث عنده حالةٌ من الندم كيف فوّته على نفسه، فهو يرى أنّه كان عليه فعله، وكلما كان عازماً على

١ـ العنكبوت: ٦٩.

الفعل أكثر كلما ندم أكثر، ويستغرق في لوم نفسه ويشعر باليأس لعدم وصوله إلى ما أراد، فتستولي عليه هذه الحالة فيصل به الأمر الى فقدان الهمة على أي شيء، فيختل توازنه ويشعر بأن لا قيمة له، فلا تتحرك إرادته إلا بعناء كبير وبلا أدنى شوقٍ، بل يقوم بأعماله كوظيفةٍ لا حياة فيها.

يا بني

هذا الشخص صار همه كيف يتقرب الى الله لكن لاستغراقه في خطئه لم يعد ينظر إلّا إلى ذنبه الذي أبعده عن الوصول.

الشكر لتوفيق الله بالابتعاد عن الاحلام

ولكن يا بني لماذا لم يفكر كم أكرمه الله تعالى إذ وفّقه لإزالة أحلامه الدنيوية التي كان أسيرها وسجين عذابها وأذهب عنه خوف فوت الأحلام حتى يشكر ربه على نعمه وتوفيقه، بل إنّه حصر تفكيره بالذنب الذي منعه من الوصول، وكذلك التائب لم يفكر أنه لم يستغرق في الشهوات بفضل من الله بل فكر بأنه ساقته الشهوة فقط، ففي كلتا الحالتين

ندمٌ ويأس، ولم يشكر الله تعالى، فكما أنّ الندم واجب فالشكر واجبٌ أيضاً.

إنّ إبليس يريد أن يستولي على المؤمن فيسوقه لليأس على خطاه.

إنّ باب التوبة مفتوح فليس الهم فقط الوصول، بل الغفران من الله تعالى حتى لا يقع العبد في غضب الله العظيم والعياذ بالله، فمن كان غرضه من التجارة الربح، إذا كسدت تجارته وخاف ذهابها يصبح همّه عدم الخسارة، وهكذا العبد حينما يسعى للوصول ويبتلى بالتقصير عليه أن يسعى لغفران الله تعالى والعفو، وبعدها يعود لما كان عليه، وهذا يجري في المعاصي وترك المستحبات وغيرهما.

وظيفة العبودية

وسبب الاستعجال والوقوع أنّه أراد أن يصل بإرادته وقوته من حيث لا يدري، وأراد أن يحقق نفسه في سيره الى الله تعالى، فإذا لم يصل زال حلمه الجديد الذي رسمه في نفسه مكان الحلم الأول فيحدث معه ما حدث، ولكن لو نظر أنه عبدٌ لله تعالى علم بوجوب أن يكون همّه الأول

طاعة المولى والقيام بوظيفة العبودية، والعبد في هذه الحال همّه الأول عفو المولى عنه، فيسارع بهمة شديدة الى التوبة وطلب العفو، فإذا أحرز العفو فرح بنجاته من غضب المولى.

أليس هذا امر يستحق السعي وإذا بلغه العبد تغمره الفرحة؟

ولكنّه كان همّه فقط أن يصل هو، فأناه متحكّمة به، وهمّه أن يكون من الواصلين بعمله، ولم يهمّه أن يترجم عبوديته لله تعالى، فلو عرف نفسه بالعجز والضعف والجهل والعجلة لما اتكل على عمله بالوصول، فهو مهما عمل لا يؤدي شيئاً من حق الله تعالى، فإذا به يمنّي نفسه بالقرب بعمله، فمن الحري به أن يرجو رحمة ربه ولطفه، ويطرق باب أحبائه محمد وآله صلوات الله عليهم، فهم باب الله الذي منه يؤتى، فمهما فعل العبد لا يؤدي شكر نعمةٍ واحدةٍ من نعم الله عليه، فكيف يرجو القرب بعمله وهو مهما تاب وعمل لا يستحق غفران ذنبٍ من ذنوبه.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «يا إلهي لو بكيت إليك حتى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشر قدماي،

وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي»[1]، فلا عملك ولا توبتك تنفع إلّا برجائك لله وطلب رحمته وعفوه، فحسن ظنك به هو بابك إليه جلت عظمته، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): قال الله تبارك وتعالى: لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا و أتعبوا أنفسهم - أعمارهم - في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا،

١ـ الصحيفة السجادية: ص١٠٢.

فإن رحمتي عند ذلك تدركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت»[١].

ولكن لأنه كان ينظر إلى وصوله فقط أصبح أعمى لا يستطيع أن ينظر إلى حقارة نفسه وإلى رحمة ربه ورأفته جلت عظمته.

الشعور بقدرة الله

ففي هذه الحالة فليعترف أنّه يريد أن يصل إلى القرب من ربه بقدرته حقيقةً وأنّه يرى نفسه مستحقاً لذلك، وإن كان يصوّر لنفسه خلاف هذه الحال، وعلامة ذلك غالباً ما تقدم، وأنّه حين فعله المستحبات لا يشعر أنه لا يستحق أن يوفقه الله تعالى لهذا الفعل، فلو شعر أنّه غير مستحق سيخشع ويشكر ولن يظن أنه مستحق لاستجابة الدعاء، وسيرى نفسه غير مستحق لهذا التوفيق فتذوب روحه شكراً، ولا يشعر عندها أن الفعل فعله بل يراه توفيقاً من الله تعالى وعليه شكره.

١ـ الكافي: ج٢ ص٦١.

ولذلك يصل به الأمر الى أحد محذورين عند عدم تمكنه مما يراه مقرّبا، فإمّا أن يقع في اليأس وانعدام الإرادة وإمّا أن يتفجر في نفسه الاعتراض على الله فيصل الى الشك أو الكفر والعياذ بالله.

أما المحذور الأول فيقع فيه لأنه بات يرى القدرة التي طالما نسبها لنفسه هشّةً هزيلةً لم تحقق له مراده، فيرى نفسه عديم الفائدة فتضعف عندها نفسه عن أبسط الأمور.

وأما الإعتراض على الله فيصل اليه من عظّم نفسه الى درجة لم يستطع أن ينسب اليها الضعف فيتهم الله بأنّه حال بينه وبين مطلوبه، ففي كلتا الحالتين يجانب الصواب فإن اتهم نفسه بالضعف خارت قواه لأنه شعر بضعف ما كان عليه اتكاله وتعويله، وإن نزّه نفسه حطّ من قدر ربه واتهمه وهوى الى القعر الذي لا يخرجه منه الا رحمة الله تعالى.

ولكنّه لو نظر إلى أن الله بلطفه أراد من خلال هذه الأمور أن يعرفه نفسه بالضعف لكي لا يتكل عليها وأن يعرّفه أنه متكلٌ حقيقةً على ذاته وأنّه لا يشعر بعجزه وجهله وضعفه ولهذا قد اتكل في الواقع على نفسه،

وليشعره بعبوديته وتقصيره مهما فعل وبعدم استحقاقه للقرب من الله تعالى والعفو عن ذنوبه.

العجب بالعمل

ثم إنّ نظر العبد إلى عمله وزهوه به لا يكون إلا لأنّه يرى عمله يليق بربه، وإلا لماذا فرح بعمله، فهذا العبد لو فكر بحق لرأى نفسه لا قدرة له على العمل لولا توفيق الله ومدّه بالقدرة ومهما حسن عمله فهو لا يليق بجلال الله تعالى، ومن هنا يتحتم على العبد أن يشكر الله على توفيقه وأن يرجو الله العفو عن تقصيره وقبول عمله، لا أن يزهو بعمله ويرى لنفسه فضلاً، فهذا آية الأنا، وما فعله العبد من ذنوب وأخطاء تجعله لا يصلح للقرب من الله تعالى.

هل المال والجاه هما معيار الاكرام؟!!

قلت: يا شيخ لماذا نقع في خطى إبليس؟

فأجاب الشيخ: يا بني إنّ الجهل والهوى سببان لعصيان رب العالمين، فخطأ الموازين يسيّر الانسان بالجهل والاعتراض على جبار السماوات، ففي المجتمع يرون الإكرام إما بإعطاء المال او المركز والجاه، فمن تقرب من ملوك الدنيا يكرموه بالمال أو بالجاه، ومن يرد أهل الدنيا اذلاله يمنعوا عنه المال او يسلبوه ماله او يزيلوه من مركزه وجاهه، هذا ميزان أهل الدنيا، فإعطاء المال والمركز يعني الاكرام ومنعهما يعني الإذلال، وتطبيقا لهذه القاعدة تتكون نظرتهم عن الأشخاص والأحوال فالغني عزيز عندهم والفقير هو الذليل، ومن يريحهم هو المحب ومن يتعبهم لا يدخل قلوبهم.

وهذا الميزان المتأصل في عالم الدنيا تشعر به النفس وتجريه مع الله تعالى وترى كل من اغواه الله تعالى فهو يكرمه ومن افقره فقد اهانه، وينظرون الى من امرضه الله مرضاً شديداً أنّه معاقب من الله على ما ارتكبه، وهذا ما حصل مع أيوب عليه السلام فقد عيّر البعض أيوب عليه السلام ببلائه لأنّ أهل الدنيا يرون البلاء إهانة واقتصاصاً، لكن هذا ليس ميزان الله تعالى

في افعاله واحكامه، فالدنيا عنده تعالى لا تساوي جناح بعوضة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] هذه الآيات الكريمة توضح لنا مدى هوان الدنيا على الله عز وجل، ومعنى هذه الآيات أنه لولا علم الله تعالى باجتماع الناس على الكفر إن أعطى الكفار كل زينة الدنيا لَأغنى كلَّ كافر الى درجة يصبح سقف بيته من الفضة ولَمتَّعه بكل متاع الدنيا، ولكن رأفة من الله بالمؤمنين أعطاهم بعض متاع الدنيا وأفقر بعض الكفار، وانّك لن تجد ابلغ من هذه الآيات في ذم الدنيا وتحقيرها والتصريح بأنّ التمكين من الدنيا والإغناء ليس إكراماً، وفي نفس سياق هذه الآيات كانت الروايات القائلة بأنّ من أحب علياً عليه السلام افتقر فالفقر هبة الله لمن أحب حبيبه، وكي

١ـ الزخرف: ٣٣-٣٥.

يتضح لك الميزان الإلهي تدبَّر قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[1] فبسط الدنيا للمرء وإفقاره ايضاً ابتلاء يمتحن به الله تعالى عباده، بل كما تقدم في بعض الروايات أن الله يكرم بعض عباده بالفقر كما في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ما يدلك على مساوي الدنيا وعيوبها. إذ جاع فيها مع خاصته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته. فلينظر ناظر بعقله أكرم الله محمدا بذلك أم أهانه؟

فإن قال أهانه فقد كذب والعظيم، وإن قال أكرمه فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه»[2].

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله يدعو لمن لم يلبّ طلبه بالغنى ولمن لبّى طلبه بالكفاف.

١ـ الفجر: ١٥-١٦.

٢ـ نهج البلاغة: ج٢ ص٦٠.

وفي القران الكريم في سورة الكهف يذكر الله تعالى ميزان أهل الدنيا في قصة الغنى الذي يرى نفسه كريما عزيزا في الدنيا بل حتى في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ

لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[1].

يا بنيّ إذا نظر المؤمن أنّ الغنى يحتاج الى شكرٍ والى لجم النفس عن الطغيان وأنّه يستدعي الاستغراق في الشهوات خاف المال، لأنّ «المال مادة الشهوات»[2] كما ورد، ومن عرف حقيقة الدنيا دعا الله بالكفاف اذا افتقر، وأن يمنّ عليه بالصبر وأن لا يبتلى بسمّ الدنيا، فالدنيا كما قال علي عليه السلام لين مسها وفيها السم الناقع، وفي الحديث الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «جاء رجل موسر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله نقي الثوب فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أخفت أن

١ـ الكهف: ٣٢-٤٤.

٢ـ نهج البلاغة: ج ٤ ص ١٤.

يمسك من فقره شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يوسخ ثيابك؟ قال: لا؟ قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن لي قرينا يزين لي كل قبيح ويقبح لي كل حسن، وقد جعلت له نصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للمعسر: أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: لم؟ قال:

أخاف أن يدخلني ما دخلك»[1].

رآني الشيخ متأملاً فيما ذكره فقال لي: يا بنيّ من كانت فكرته خاطئة او نفسيته خاطئة في مشاعرها وقع في عدم الرضا بالقضاء وقسوة القلب والعصيان، فمن اعتقد أنّ الغنى عزٌ والفقر ذلٌ لم يرضَ بقضاء الله تعالى واعترضت نفسه على جبار السموات، ومن شعر بنفسه أن حاجته حقٌ له شعر بالظلم وتوجهت نفسه لعدم الرضا بقضاء الله تعالى.

١ـ الكافي: ج ٢ ص ٢٦٢.

العقل والقلب عندما يتظافرا

سأل الرجل الشيخ عن المقدَّم في السير الى الله تعالى أهو العقل أم القلب؟

فقال له: يا اخي، إذا أراد العبد متابعة العقل ومخالفة الهوى يتحرك في عبادته وسعيه للتقرب الى الله تعالى، ويكون داعيه ومحركه عقله فما دام ملتفتا الى الفكرة يسعى بمقدار، فإذا انشغل بأمرٍ ما التهى فيغفل أو ينسى.

فسأله الرجل: ما الحل؟.

قال: إنّ إرادة الإنسان اذا كان منشؤها العقل تكون ضعيفةً او تضعف بعد مدة قصيرة، لأنّ الانسان اذا انشغل بما يهوى التهى به فيغفل عن غيره او يصل الى درجة النسيان، وحتى تقوى الإرادة وتقل الغفلة او تنعدم ويرتفع النسيان، لا بد أن يكون المحرك والداعي هو القلب والعقل معاً.

فاذا وجد الداعي في القلب واشتد حرّك العبد بقوةٍ، مثل الأم مع ولدها فهي حال استغراقها في النوم اذا سمعت أنين طفلها استيقظت مع

أنها لو صرخ أحدٌ قربها لم تسمع، والسبب أنّ حبّها لطفلها الموجود في قلبها صيّر صوته يرنّ في روحها فتستيقظ من لذيذ رقادها لأجله، ومن هنا جاء في الدعاء: «وقد ناجاك بعزم الإرادة قلبي»[١]، فكأنّك تقول: إنّ سلطاني الحاكم وهو القلب هو الذي يريدك بعزم وإرادة لا تهاون فيها يا رب، ولهذا نرى الإنسان يريد أن ينجح في المدرسة ولكنه لا يدرس فيرسب، مع أنّه بفكره يريد النجاح.

ولكن لو أراد بشدةٍ أن يصبح طبيباً نراه يدرس بجد ونَهَم لأنّه أحبّ أن يصبح طبيباً، وهذا يعني أنّ مراده اصبح غرضاً قلبياً، والقلب هو سلطان الجوارح فتتحرك الجوارح لتحقيق الغرض، فالإرادة هنا منشؤها القلب ومن الصعب أن ينسى الإنسان ما يحب أو ما يكره بل حتى أن يغفل عنه، فالهمَ إذا دخل القلب اقلقه فلا يستطيع النوم، فكيف ينسى أو يغفل.

١ـ مصباح المتهجد: ص١٦٢.

ولهذا قال الأمير عليه السلام: «وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به»[١]، ولا تصبح الفكرة هماً محركاً بشدة الا إذا انتقلت الى القلب، ولهذا قالوا أنّ الإرادة من مقدماتها الشوق، لا الفكرة، فلو ألهيت صاحب الهمّ بكلامٍ سرعان ما يتذكر، وهكذا الأم لا تنسى ولا تغفل عن ولدها لأنّ في قلبها حباً له لا مجرد فكرة.

سألته: كيف أدخل الحبَّ المحرك الى قلبي؟.

قال لي: قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «وانهج لي إلى محبتك سبيلا سهلة»[٢]، وقد تكلمنا في أنّ القلوب مفطورة على حب من أحسن اليها، ونعم الله على العبد لا تعد ولا تحصى، فمن أدرك نعم الله تعالى وشعر بها أحب الله تعالى، وإذا ادرك عظمة الله احب الله لأنّ الإنسان محبٌ للكمال، وخاف الله ايضاً، فمع إدراك الإحسان والعظمة يتحقق السعي التام.

١ـ نهج البلاغة: ج١ ص١٥٢.

٢ـ الصحيفة السجادية: ص١١٦.

الطاعة على نحو العبادة (الطاعة المطلقة)

إنّ طاعة العظيم سهلةٌ على الناس، فإبليس لم يعترض على السجود لله مباشرةً ولكنّه اعترض على السجود لآدم فهو يرى نفسه اعظم منه، وهذا حال الأمم مع أنبيائها فرؤساء الأمم ووجهاؤها لا يطيعون نبياً يرونه اقل منهم مالاً أو جاهاً، كما حدث مع فرعون فقد استصغر موسى عليه السلام.

وطاعة الأنبياء طاعةٌ لله تعالى لأنها بأمره، ولكن طاعة الله مباشرةً اسهل عليهم، والله يريدهم أن يطيعوه على نحو العبادة أي طاعةً مطلقة، ومن هنا كانت الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، ومنزل الحب القلب، وهو سلطان الجوارح، فإذا وجد الحب في القلب تحكم بالعبد وسعى لمرضاة المحبوب، وذلك لا يكون الّا باتباع حبيبه محمد صلى الله عليه وآله، وبهذا تتحقق

١ـ آل عمران: ٣١.

العبادة، فإذا كنت تحب الله عليك أن تتبع حبيبه محمداً ﷺ، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[١].

هنا انقطعت الكهرباء ودوّى صوت الرعد واهتزت له الارجاء فأخذ الشيخ يدعو قائلاً: «اسألك اللهم بالمخزون من أسمائك وبما وارته الحجب من بهائك، إلا رحمت هذه النفس الجزوعة وهذه الرمة الهلوعة، التي لا تستطيع حر شمسك، فكيف تستطيع حر نارك ؟ ! والتي لا تستطيع صوت رعدك، فكيف تستطيع صوت غضبك ؟ !»[٢].

الصوفية وتمسكهم بمشايخهم

ثم تابع الشيخ حديثه قائلاً: أمّا من يدّعي حبّ الله تعالى وهو لا يسير على خطى رسول الله ﷺ كالصوفية، فكل ما يأتي به من ذكر مخترَع وطقس مبتدَع لا يزيده من الله إلا بعداً، فإنك تراهم يبحثون عن مجوّزات من الشريعة لطريقتهم وأذكارهم فيتمسكون ببعض الإطلاقات وينبذون

١ـ الأحزاب: ٢١.

٢ـ الصحيفة السجادية: ص٣٧٥.

النصوص وراء ظهورهم، ويأمرونك بما جرّبه مشايخهم وهو العمدة عندهم، وهم مع ذلك يدّعون حب الله تعالى، فأيّ محبٍ هو الصوفي الذي لا يطيع امر الله تعالى ولا يصدّق وعده، فقد امرنا الله تعالى أن نأتي بما أتى به محمد صلى الله عليه وآله لا مشايخ الصوفية، فاتّباع النبي صلى الله عليه وآله والتأسّي به هو الذي يورث حب الله تعالى، وأفعاله صلى الله عليه وآله هي المحبوبة لله عز وجل.

تفكُّر ساعة

يا اخوتي، لمّا كان المحرك الأشد نحو الله تعالى هو الحب والخوف، امرنا الله عز وجل بالتفكر في نعمه وفي خلقه وعظمته وذلك في كتابه وعلى لسان أوليائه عليهم السلام قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1] وآيات الأمر بالتفكر أكثر من أن تحصى، وكذلك الأحاديث الشريفة، عن أبي عبد الله

١ـ آل عمران: ١٩١.

عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: نبّه بالتفكر قلبك، وجاف عن الليل جنبك، واتق الله ربك»[١]، وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾»[٢].

فالذكر من العبادة والتفكر أفضل منه بدرجات، أما الصوفية فأفضل شيء عندهم أن توقف عقلك وتنطلق بالذكر في نفسك.

الحب والخوف

ولشدّة داعوية الحب والخوف قال الأمير عليه السلام «ألا ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات»[٣] ففي هذه الرواية كان طيب النفس عن مفارقة الشهوات بسبب الشوق الى الجنة الموجود في القلب، والمانع عن المعصية هو خوف النار وهذا الخوف محلّه القلب أيضاً، فحركة المرء تابعة لقلبه.

١ـ الكافي: ج٢ ص٥٤.

٢ـ بحار الانوار: ج٦٨ ص٣٢٧.

٣ـ الكافي: ج٢ ص١٣٢.

ومن هنا كان الحث في الروايات الباعثة للعبادات من خلال الثواب العظيم وغفران الذنوب الموعود بهما، ولهذا ترون في كتب الأدعية 'من قراء هذا الدعاء له هذا الثواب من دخول الجنة وغفران الذنوب' وهذا لا يخلو منه دعاء يريد المعصوم أن يبعثك لتدعو الله به، وكذلك الكلام في مقام ردع الإنسان عن المعاصي من خلال التخويف كما ورد في القران الكريم تخويف العبد بجهنم وعذابها إذا عصى الله تعالى وكذلك خوف الله ومقامه جل جلاله يحث على الطاعة.

فالقلب هو المحرك الأهم على اختلاف ما يعتريه من حب وخوف، وليس الحال كما قال الفلاسفة من أنّ الإرادة منبعثةٌ من الشوق فقط، بل إنّ الخوف باعث قوي لترك معصية الله تعالى وليس الباعث الوحيد هو الشوق.

فالإيمان بالغيب القلبي يولد شوقاً الى الجنة وخوفاً من النار وحباً لله تعالى وخوفاً منه جلت عظمته، وكلما كان اليقين أشد كان الحب والخوف في القلب أشد فكان السعي أشد.

النظر الى الألم

فسألت الشيخ: ما الذي يخمد حب الله في قلب العبد بعد اشتعاله، أو يسبب عدم تأثير الحب، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان الى وجود خواطر في النفس والذهن تشكك بالله جلّت عظمته.

فقال لي الشيخ: قد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من اساء إليها، والعبد حينما يحل في ساحته البلاء يتألم فإذا نظر إلى الألم يراه أذية، والأذية ظلم والظلم إساءة، وهو يرى نفسه غير مستحق لهذا الظلم، وينظر الى غيره ممن يرى نفسه افضل منهم فيجده لم يحل به هذا البلاء، وقد لا يلتفت إلى هذه الجهة أصلاً فيرى ظلامة نفسه فقط، فالتفكير من خلال ألمه وحزنه سيشعره بالظلم والإساءة، وهذا يؤثّر في القلب لأن القلب يشعر بأنّه إساءة من الله والعياذ بالله، فيقل أثر الحب أو ينعدم، فإذا سار بعقله فقط صارت عباداته جسداً من غير روح، وكلما شعر العبد بالظلم الناشئ من حلول الألم اضمحل حبه لله بل قد يزول.

كثيراً ما يكون منشأ الشكوك نفسياً

ففي هذه الحالة تبدأ مرحلة الشكوك فالشك بالله تعالى منشؤه نفسي فلو نظر العبد إلى الحكمة والعظمة المتجلية في الخلق يصبح الشك حالة من حالات الغباء، فالتمسك بالصدفة مثلاً مهزلة التاريخ، فترى العلماء كلما رأوا ظاهرة كونية بحثوا عن سببها وفائدتها فلا يقبلون أن تكون بلا حكمة، فلو وُجدت صدفةً فالأصل أن تكون بلا حكمة وهذا ما لا يفعلونه، فالشك سببه زيغ القلوب، كما ذكرت الآية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[1].

فكما أنهم مع القرآن لا يتبعون المحكم من الآيات بل المتشابه، مع أن العاقل الذي يحقق في قضيةٍ ما يحكم بموجب الأدلة المحكمة لا المبهمة، كذلك هم مع عالم الوجود فمعظم ما في عالم الوجود ظاهرٌ إحكامه وهناك بعض الأمور غير واضحة الفائدة لجهلنا بقوانين كثيرة بعالم الوجود، فتراهم يذهبون إليها ويصدرون أحكامهم من خلالها مع

١ـ آل عمران: ٧.

أنه في كل العلوم يجمعون القواعد من المحكمات، وما هو موضع شبهة يحملونها على قواعدهم فذهابهم الى المتشابه سببه زيغ قلوبهم.

ولهذا ترى بعض الناس مع حكم عقله بعدل الله ووجوده يشعر أن نفسه لا تطمئن بذلك، فيعيش في عذاب نفسي، وسببه غالباً أن نفسه تشعر بالظلم، والنفس البشرية مفطورة على أنّ الإله لا يكون ظالماً أصلاً، فإذا شعرت بالظلم شككت، أولم ترض بقضاء الله تعالى فيصبح المرء قاسي القلب وقاسي القلب بعيد عن الله تعالى.

اجعل العبودية همك الوحيد

قلت للشيخ: قد اعجبتني رواية قدمتها عن أنّ للمؤمن همّاً واحداً فتفضل عليّ ببيان شيء من معناها.

فقال: إنّ المرء يا بني إذا كان محباً للدنيا وهو يعلم أنّ الله تعالى إلهٌ قادرٌ سيتحكّم حب الدنيا به فيجعل الله جلت عظمته وسيلةً للحصول على الدنيا، ولهذا من الصباح يدعو الله تعالى لقضاء حاجاته فيدعو الله بما يريد من رزقٍ وتيسير أمورٍ، ويؤكّد ذلك ظهراً، وينظر ليلاً الى ما تحقق من

حاجاته، وهو لا يسأل الله التوفيق لما يريده منه جلت عظمته، فهل هذا عبد أم مولى؟.

فالدنيا عالم تنفيذ أوامر الله تعالى وليست محلاً لتحصيل أغراض العبد، نعم إنّ المؤمن يطلب من الله تعالى أن يوفر له الظروف لطاعته، وهذا شيءٌ وأن يجعل الله تعالى وسيلةً لأغراضه شيءٌ أخر.

فالمؤمن كما قال الإمام علي عليه السلام: «وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به»[1]، همّه الله تعالى ويرى الدنيا وسيلة الى الله تعالى ويتعاطى معها على هذا الاساس، ولا يجعل الله تعالى وسيلة لدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

فإذا استيقظ هذا العبد من غفلته، وخلع من نفسه أحلامه لأنه تأكد وأقرّ أنّ الدنيا ليست دار تحقيق الأحلام، بل هي دار تحقيق العبودية لله تعالى، وطلب من الدنيا ما يسهل له المسير الى الله تعالى وعلم أنّ الدنيا ليست دار راحة وسعادة بل دار بلاء وتعب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

١ـ نهج البلاغة: ج١ ص١٥٢.

الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[١] أي تعب، فيرضى بعدم حصوله على الدنيا ولا يعود يطلب الراحة، بل يطلب العمل، فهنا يبدأ السير بالقلب والعقل معاً، ولكنّ الألم قد سكن في النفس وأرّقها لمدةٍ وخوف الألم لا يزال مسيطراً على النفس، فتصاب بالخوف من المستقبل والتشاؤم، وهذا الاخير يحتاج الى مزيد بيان أوضحه لك لاحقاً إن شاء الله.

فإذا رضي بالألم يا بني ذهبت أثاره واستراحت نفسه وتقرب من ربه.

وما يعفو عنه أكثر

فقلت للشيخ: إنّ ما تفضلت به في غاية الأهمية فغالب الناس غارقة في آلامها، عساك أن تزيدني في معرفة سبيل النجاة من الآلام وتأثيرها.

فقال لي: يا بني إذا توجهت إلى ضعفك والتجأت الى الله تعالى، ونظرت الى البلاء وقسته على حجم ذنوبك واخطائك ستراه قليلاً وسترتجف اركانك عندما تقول: «يا إلهي لو بكيت إليك حتى تسقط

١ـ البلد: ٤.

أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي»[١].

فإننا نستحق من البلاء أكثر مما ابتلينا به بأضعاف، ويجب أن تكون فرحاً بهذا البلاء القليل، فمن عمل جرماً يستحق عقاباً عليه عشرين عاماً فحكم عليه بسنتين، لابد ان يكون سعيداً بهذا الحكم، لأنه علم ما يستحق وادرك قلة ما حكم به، هذا والدنيا دار بلاء، فعليك أن تتهم نفسك بالتقصير وأن تدرك أنك تستحق بلاءً أشد، فإذا اتهمت نفسك ونزهت ربك استراحت روحك وشعرت براحة نفسية وقربٍ من الله تعالى وانشرح صدرك، وعندها ستشتاق لعبادة الله تعالى.

١ـ الصحيفة السجادية: ص١٠٢.

وإذا نظرت إلى آلامك وعذاباتك واستغرقت بهما ابتعدت عن الله تعالى وأصابك ما تقدم بيانه.

هنا استأذن الجالسون للمغادرة فشايعهم الشيخ الى باب الدار فتهيأت انا ايضا للعودة الى منزلي وريثما دخل الشيخ وجدني متأهبا فقال لي: اعلم يا بني أنّ من شعر بالعبودية من خلال عدم الشعور بالحول والقوة جأرت نفسه الى الله تعالى لأنها تشعر أنّ القادر هو الله تعالى، فتنفتح بصيرته فيرى الحقيقة.

هنا استأذنت الشيخ وعدت الى منزلي متفكراً في كل كلمة خرجت من فمه وأنها كيف كانت تنزل في روحي وكأن مكانها كان فارغاً، وطلبت من الله التوفيق لتعلُّم علوم محمد وآل محمد صلوات الله عليهم لما رأيت من تأثير العلم على علاقة العبد بربه، وبقيت على حالة من القرب من الله لأيامٍ، ولكن لما طالت علي المدة وانا منشغل بأمور وهموم الحياة وجدت نفسي قد بدأت تعود الى سابق عهدها خصوصا مع

الانسجام بما عليه المجتمع، فعزمت على زيارة الشيخ للاستفادة مما عنده من علوم محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين.

في اليوم التالي ذهبت لزيارته فوجدته عند باب داره يستقبل ضيفاً، والأخير يدعو للشيخ بقبول الزيارة، فعلمت أن الشيخ كان في زيارة العتبات المقدسة فهنأته بالزيارة ودخلنا، ولما جلسنا اشعل الشيخ المدفأة وجلس ورحب بنا أشد الترحيب، فسألته إن كانت زيارته الى العتبات المقدسة في العراق فأجاب حامداً الله تعالى على هذا التوفيق وجرى حديث قصير بينه وبين ضيفه ثم التفت الي قائلاً: هل وفقت لزيارة سيد الشهداء عليه السلام، فأجبته بأن ذلك قد حدث بفضل الله منذ خمس سنين وأنا الآن اتقلب على جمر الشوق للزيارة، فقال: عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «من اراد الله به الخير قذف في قلبه حب الحسين وحب زيارته، ومن اراد به السوء قذف في قلبه بغض الحسين وبغض زيارته»[1]، فاحمدوا الله تعالى على نعمة حب الحسين وحب زيارته.

١ـ كامل الزيارات: ص٢٦٩.

ثم دخل احد ابناء الشيخ الغرفة وقدم لنا تمراً وماءً من جوار قبر أبي الفضل العباس عليه السلام فقال لنا الشيخ اقرؤوا على الماء سورة القدر واسألوا الله أن يجعله علما نافعاً وشفاءً من كل داء وسقم واشربوا، ثم التفت الي قائلاً: بدأ وهج الحب يخمد في قلبك اليس كذلك؟.

فقلت له: كأنك اطلعت على ما في نفسي.

من آثار حب الدنيا

فقال هذا الأمر طبيعي الحصول للإنسان في بداية سيره في طريق الله، ولكن اعلم أنّ إرادة الآخرة ورضى الله تعالى تارة تكون بأمر من العقل وأخرى تكون بأمر من العقل والقلب معاً ولكن فيها مخالفة للهوى، وهنا علينا بيان أنّ العقل يكون داعيا لطاعة الله ولكنّ الهوى يصارع العقل، قال الأمير عليه السلام "أخوف ما أخاف عليكم إتباع الهوى وطول ألأمل فأما إتباع الهوى فيصد عن الحق واما طول الأمل فينسى الآخرة" فالعقل يدعو لمخالفة الهوى فإذا كان القلب مع العقل ضعف الهوى، والسبب أنّ القلب إذا أحب الله والأخرة لم تبطل اللذة التي تشعر بها النفس، فالإنسان

المصاب بمرض السكري عقله يدعوه لترك أكل السكريات والنفس تكره ضرره ولكن لذة طعمه تشد البعض لأكله كما راينا ذلك بأم أعيننا، وهذا يحصل معنا.

وتارة لا يريد العقل ذلك الضرر ولكن النفس تحبه فتأخذ صاحبها الى الهاوية وهذا ما حصل مع عمر بن سعد لعنه الله، فقد كان يعرف أن الحق مع الإمام الحسين عليه السلام، ولكن حبّه للدنيا جعله يقاتل ولي الله تعالى.

هنا اخذ الشيخ المصحف الشريف واخذ يقلب في صفحاته بهدوء ثم قال:

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

إن إرادة الدنيا تعني حب الدنيا، تأملوا في هذه الآيات ففي البداية قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فقد تمنوا ما عند قارون فأصبحت آمالهم بالدنيا، فحينما رأوه على تلك الحال وأدركوا عاقبة أمره ندموا على تمنيهم وحمدوا الله على عدم حصولهم على ما جمعه قارون، فشعورهم بعاقبة فعله وحبه للدنيا كرّه اليهم ما هو عليه، أمّا أهل الله تعالى فقد عرفوا الدنيا على حقيقتها فقالوا من بداية الأمر: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ وقولهم كشف عن يقينهم بالغيب وزهدهم بالدنيا واستصغارهم لها فهنا نموذجان ينقسمان بين أقصى اليمين وأقصى اليسار.

١ـ القصص: ٧٩-٨٣.

العادات قاهرات

هنا دار حديث بين الشيخ وضيفه عن الرضا بقضاء الله تعالى، فقلت للشيخ: هذا حالنا نريد أن نرضى بقضاء الله تعالى وأن نعمل ما يريد الله تعالى ولكن المشكلة أننا لا نستطيع ولا نعرف السبب.

فقال الشيخ: العبد في صغره يفكر بما تريد نفسه من لعبٍ ولهوٍ، فيتخذ فكره من هوى نفسه، ولو جاء المنع عن أمر يأتي من الخارج، فهو يشعر أنّه يستطيع أن يعمل ما تهوى نفسه، وهذا الاعتياد النفسي يرسخ في النفس فتصبح النفس تشعر أنها تعمل ما تريد.

وكما قال الامام الحسن عليه السلام «العادات قاهرات»[١]، فحينما يكبر تبقى هذه الحالة في نفسه، وعندما تتعدد الدواعي تقع المشكلة، فنفسه تريد حاجتها وعقله يريد منه أن يقدم طاعة ربه على نفسه، فيقع الصراع فهو عنده ظن أن ما يريده يقع فهو يريد طاعة الله ولكن حين الصلاة لا يشعر

١ـ تنبيه الخواطر: ص٤٣٢.

بتوجه وكذلك حين الدعاء ويشعر أنه غير راض بالبلاء وهكذا حتى يصاب بالشلل النفسي في بعض الأحيان ولا يعرف الخلاص لأنه لا يعرف المشكلة.

ثم قال الشيخ: إذا عرف العبد المشكلة ذهبت الحيرة، فيشعر براحة نفسية ولكن يبقى الصراع في نفسه.

انفتاح البصيرة

فقلت: أيها الشيخ بالله عليك ما هو الحل؟

فقال: يا بني حتى تتضح لك الحقيقة سأذكر لك مثالاً واضحاً على هذه المسألة.

فبعض الناس يقاتل من حوله على حقوقه المالية أو غيرها بشدة، وهو يراها حقه ولا يتنازل عنها حتى تصل المسألة لقطيعة الرحم أو الأذية في بعض الأحيان، ولكن حينما يحل الموت في ساحته تراه يقول تسامحوا لي من فلان لقد تعديت عليه ولم أعرف كيف صورت لي نفسي هذه الأمور، فيندم على الذي حدث لانفتاح بصيرته، فأصبح يرى الحق.

والسبب في ذهاب العمى وانفتاح البصيرة هو تبدّل همه، فقد كان همّه نفسه فكان يرى الأمور من خلالها، وهي تريد منافعها فتصور له الأمور على هواها، وهذه الحالة نراها واضحة في بعض الأشخاص، فمن يريد فتاةً ويحبها، مهما تكلمت معه عنها أنها لا تناسبه لا يستجيب، فيقال له إنك لا تسمع فأنت تنظر بعين الشهوة، فكيف ترى بعقلك وأنت لا تنظر من خلاله، وبعد فترة تظهر سلبياتها فينفر منها ويقول لماذا لم أسمع منكم فيندم ولكن بعد فوات الأوان.

فإذا حين تظهر عاقبة الأمر تبين الحقيقة.

مثلا من يموت والداه ينظر الى إحسانهما عليه فيندم على تقصيره بحقهما، والعلة هو النظر إلى حقهما وإحسانهما لا إلى نفسه ونفعها وحقها، وكذلك تنفتح البصيرة حين التفكير في حق الله تعالى على خلقه وحق الأخرين، وذلك صعب تحققه إذا كان الإنسان يفكر في نفسه، فمن

سيطرت عليه نفسه أعمته، يقول الله: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾[١].

وكما قال الرسول ﷺ: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[٢]، فمن سلّم حكمه الى نفسه تحكّم به عدوه، وما مصيره إلا الهلاك، ومن نظر الى نفسه على أنها عدو له حمل أحكامها على الغش، فيصبح يتفحص كل ميل لها، حتى لا تغشه، ومن دار أمره بين حكمين ولا يعرف الحق بينهما عليه أن يأخذ بما خالف هواه منهما كما في الخبر.

والنتيجة أنّ رؤية العاقبة تفتح البصيرة، فيتمكن المرء من التفكير في حق غيره، وذلك يكون عبر عدم الدوران حول النفس فمن كان همّه نفسه عميت بصيرته، فهو ينظر إلى نفعه وحقه ولا يرى حق غيره، بل يتهم ربه تعالى، ومن يعرف نفسه بالجهل وغلبة الهوى والتقصير والعجلة والأمر بالسوء لن يأخذ بحكمها.

١ـ يوسف: ٥٣.

٢ـ بحار الانوار: ج٦٧ ص٣٦.

عندما ينسى الانسان الدنيا

هنا سأله ضيفه: لماذا لا نستمر بالسير في طريق الله تعالى؟

فقال له الشيخ: يا اخي، إن الإنسان حينما يدخل في الدين يكون عطشاً للقرب، فيدخل بهمة ويكون همّه الله تعالى، فيسير في طريق الحق وهذا الشوق يحركه وينسيه الدنيا قليلاً، وهذا السعي يعرج بروحه الى القرب من الله تعالى.

وهذه الحالة تحدث كذلك حين يسمع العبد موعظة تحرك روحه نحو الله تعالى، أوحين يموت له حبيب فيشعر بقدرة الله تعالى وفناء الدنيا وضعفه فيتحرك نحو عبادة الله تعالى، وكذلك الامر اذا تفكر بالموت، ففي الرواية عن أبي عبيدة الحذّاء قال: «قلت لأبي جعفر (عليه السلام): حدثني بما أنتفع به، فقال عليه السلام: يا أبا عبيدة أكثر ذكر الموت، فإنه لم يكثر إنسان ذكر الموت إلا زهد في الدنيا»[1]. ولقد ثبت أنّ من يهتم بنفسه يحب الدنيا

١ـ الكافي: ج٢ ص ١٣١.

لملذاتها، فمن لم ينظر الى الدنيا توجهت روحه الى الله تعالى، فذكر الموت إذاً يرفع المانع من طاعة الله وقربه وهو حب الدنيا.

وهذا العبد الذي يقترب ثم يبتعد عن الله حاله كحال من يذهب مشتاقاً الى زيارة الامام الحسين عليه السلام، تكون همته في تحصيل الزيارة ويكون قد ترك عمله، فلشدة اندفاعه للزيارة يذهل عن الدنيا تقريباً، فتقترب روحه من الله تعالى وكلما كان شوقه أشد كلما كانت فائدته أكثر، فتحصل له حالة من القرب من الله تعالى تسعد بها روحه، وحينما يرجع الى وطنه يشعر أن نفسه بعيدة عن الدنيا فينفر من المظاهر التي تبعده عن الله تعالى، ولا يرضاها الله له، فينفر من مظاهر الفسق والفجور، ومن الأمور التي لها علاقة بالدنيا ولو كانت مباحة بمقدار قربه من الله تعالى.

ولكن بعد فترة يسيرة يشعر بذهاب تلك الحالة فتعود علاقته بالدنيا التي هجرها ولو ذهولاً عنها لفترة قصيرة.

فسألته: لماذا عاد إلى الدنيا بعد تركها؟

فقال: يا بني، انما ترك الدنيا ذهولاً، ولمّا عاد الى وطنه ذهب الذهول، فعاد الى أنسه بها بعد فترة يسيرة، فابتعدت روحه عن الله بمقدار قربه من الدنيا، وهكذا حينما سار الى الزيارة بشوقه وهو يرى قبح الدنيا بعقله، شعر بقبحها قليلاً في نفسه، فسار مدةً قصيرةً وبعد الرجوع الى العمل والناس تذهب شدة الشوق لله ويحل محله الشوق للدنيا.

والسبب أنّ تركه للدنيا لفترة يشعره بالشوق الى الدنيا، كحال الولد حينما يذهب للّعب يذهل عن والدته، ولكن حينما يلعب مقداراً لا بأس به يتذكر أمه فيشتاق اليها، فيبكي طلباً لها.

التعاطي مع النفس

فسألت الشيخ :كيف نتعاطى مع أنفسنا؟

فقال: يا بني، إذا شددنا على أنفسنا بترك الدنيا حتى في حلالها فترة من الزمن نشعر بميل زائد إلى الدنيا، مثل من يترك التدخين، فبعد فترة يعود اليه فيشرب بنهم، ومن يجوع يشعر بشوقٍ قويٍ للطعام، ويرى في الطعام لذةً كبيرةً حتى لو كان ما أكله طعاماً بسيطاً، مثل الانسان الذي

ضاع في الصحراء فقتله الجوع والعطش فلو شرب ماء الواحة وأكل خبز الشعير يشعر أن هذا الماء والطعام من الذّ ما شرب وأكل، ولهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اعزبي عني، فوالله لا أذل لك فتستذليني، ولا أسلس لك فتقوديني. وأيم الله يمينا أستثني فيها بمشيئة الله، لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدوما، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها. أتمتلئ السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض ويأكل علي من زاده فيهجع؟. قرت إذا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية.

طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها»[1].

وحينما قال عليه السلام: «وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيئة الله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح

١ـ نهج البلاغة: ج٣ ص٧٤.

مأدوما»، فهو عليه السلام يقول أن النفس تنبسط إلى قرص الشعير وتفرح به من شدة ما حرمت من الطعام، وتفرح بالملح معه.

يا بني إنّ النفس إذا أعطيتها ما تريد لا تشبع أبداً، وإذا منعتها تفرح بأقل أمر من الدنيا، ولكن الأمير عليه السلام يقول لنا أنّا لن نستطيع أن نفعل مثل فعله فقد قال عليه السلام أيضاً: «ألا وإن لكل مأموم إماما يقتدى به ويستضئ بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه.

ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد»[1].

تقسيم الساعات

ولمعرفة كيفية التعاطي مع النفس انظر فيما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «ينبغي للعاقل إذا كان عاقلاً أن يكون له أربع ساعات من النهار: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه،

١ـ نهج البلاغة: ج٣ ص ٧٠.

وساعة يأتي أهل العلم الذين يبصرونه امر دينه وينصحونه، وساعة يخلى بين نفسه ولذتها من امر الدنيا فيما يحل ويجمل»[١].

وقال أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الاخوان والثقات الذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات.

لا تحدثوا أنفسكم بفقر ولا بطول عمر، فإنه من حدث نفسه بالفقر بخل، ومن حدثها بطول العمر يحرص.

اجعلوا لأنفسكم حظا من الدنيا بإعطائها ما تشتهي من الحلال وما لا يثلم المروة وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك على أمور الدين ، فإنه روي "ليس منا من ترك دنياه لدينه أو ترك دينه لدنياه"»[٢].

١ـ روضة الواعظين: ص٤.

٢ـ تحف العقول: ص٤٠٩.

فهنا قال لنا عليه السلام لا تقسوا على أنفسكم وأمرنا بعدم الاسراف في الملذات، فمن أسرف واستغرق في ملذاته لم يشبع، ومن حرم نفسه بشدة تنفر منه نفسه فلا تطيعه في عبادة الله إلا بالإكراه.

فالتعاطي مع النفس حسب تقسيم الوقت يكون الى اربع ساعات، أول ساعة هي لله مباشرة، أي الهم فيها هو عبادة الله تعالى وليس طلب الدنيا، أما نحن فنملؤها بالدعاء للدنيا نريد مالا وتجارة وشفاء وخلاصا من همومنا، ولا نسأل الله تعالى ماذا يريد منا جل جلاله.

والثانية: لمعاشرة الإخوان الذين يبصروننا بعيوبنا، فإذاً هي ساعة لمعرفة عيب أنفسنا لجهادها، وليست ساعة مسامرة فقط وقضاء الوقت بذكر الملذات والطرائف، بل هي ساعة تريح النفس وتقرب الى الرب، ويجب أن لا يكون الهم عند مجالسة الاخوان في دفع الانتقادات عن انفسنا، بل أن أفكر هل أصاب أخي عيوبي فهو مرآتي التي أعطانيها الله الرحيم.

والثالثة: هى لطلب المعاش وهذه مطلوبة من الله تعالى فـ«الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[١]، فهي مطلوبة من الله تعالى، فلينوي بها العبد طاعة ربه وطلب رضاه، وليس جمع المال وتحصيل الملذات.

والرابعة: «ساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات»، فهذه الساعة غير مطلوبة لذاتها بل لغيرها فهي ساعة تستريح فيها النفس، فيعود إليها نشاطها فتعاود العمل بجد فهي ساعة راحة طلباً للعمل، فإن الدنيا دار عمل كما ورد، وليست دار راحة، ولهذا جعلت ساعة اللذة وسيلة للعمل، فمن صيّر هذه الساعات للدنيا حتى ساعة الصلاة التي هي لله تعالى ستسيطر عليه خواطر الدنيا، وفي نهاية الأمر سيصبح شغله الشاغل طلبها، فإذا لم يشتغل ذهنه بالله لن تشتغل روحه بالله تعالى.

وإذا ساق نفسه بشدة نفرها من طاعة الله تعالى، ولهذا جعلت الاولى لطاعة الله مباشرة، والثانية مع الإخوان فهي تريح لان المؤمن يستريح

١ـ الكافي: ج٥ ص٨٨

لأخيه، والثالثة لطلب المعاش، فلا يكون المؤمن عالة على غيره كما يفعل بعض الصوفية، وهذه تريح النفس فالعمل يريح النفس ولو اجهد الجسد، فيصبح لراحة البدن طعم.

إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق

فإذا سار العبد بهذه الطريقة يذهب شوق نفسه للدنيا بهدوء، لأنه ينفس عنها فلا يمنعها فتهرب ولا يستغرق فتجمح به، فإذا سار مع نفسه بهذه الطريقة لا تجره نحو الدنيا بشكل أعمى، فيسير مع نفسه برفق فيعطيها قليلاً من ملذات الدنيا حتى يخفف شوقها للدنيا، لأن ترك الدنيا بنحو مطلق يحدث بعد مدة شوقاً شديداً لها، لأن كل محجوب ويوجد نحوه ميل يصبح مرغوباً بنحو أشد، والنفس تشعر أن هذا الحرمان بسبب العبادات فتنفر منها لأنها جلبت لها هذا الألم، فلفراق الدنيا بالمطلق ألمٌ فى النفس سببه أنك تمنعها عما تأنس به وتستلذ به.

من شطحات الصوفية

وهذه الحالة رأيناها عند من طلب التصوف ومن يلبس العرفان الرباني ثوب التصوف، فيمنع نفسه مما أحله الله له بشدةٍ، وهو لشوقه لله يلتزم أوراداً كثيرةً ويجبر عليها نفسه، وإذا به بعد فترة يذهب شوقه بسبب الألم فإن الشوق يُذهبه الألم الذي تحدثه الشدة، وحينها إذا ترك العبادات شعر بالتقصير والبعد عن الله تعالى، وإذا فعلها ضاقت نفسه، فهو لم يعد قادرا على فعلها ولا تركها، فيعيش حالة من الألم العجيب، لا يعرف لنفسه خلاصاً، فإذا أتى بها نفرت نفسه وإذا تركها تألم، وهذه طريق الصوفية المبنية على التقشف وحرمان النفس، وهذا واضح لمن تمعن في كتبهم، والروايات ناهية عن طريقتهم وبعض العلماء ألّف كتباً للرد عليهم مثل الحر العاملي وكثر غيره.

ولكن لو اتبع دين الله تعالى وسار في ترك الدنيا برفق وبتدرج حتى تعتاد النفس كما علمنا اهل البيت عليهم السلام حينما قالوا «إنّ هذا الدين

متين فأوغلوا فيه برفق»[١]، فيعطيها شيئا من المباحات حتى يجرها نحو المستحبات لأن النفس إذا أخذت شيئاً من الدنيا ذهب شوقها إليها، فيشتد شوقها للأخرة.

فإذا فطم المرء نفسه عن الدنيا دفعياً ستشتاق الى الدنيا بشدة، فيصبح همها الدنيا، وهذا عين الغفلة عن الأخرة، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[٢] فالقلب واحد والهم المسيطر واحد، ولهذا يقول الأمير عليه السلام «وتخلى من الهموم إلا هما واحدا انفرد به»[٣].

فإذا كان عند الإنسان شوق شديد للآخرة وسعى اليها بشدة مع كون نفسه غير معتادة على ذلك بل معتادة على الدنيا ستحدث النفرة من الطاعة، ويشتد الشوق للدنيا، وهذا حال من جوع نفسه بشدة فنفسه

١ـ الكافي: ج٢ ص٨٦

٢ـ الأحزاب: ٤.

٣ـ نهج البلاغة: ج١ ص١٥٢.

ستطلب الطعام بشكل أشد، وهذا ما يحدث لمن يترك الدنيا بهذه الكيفية الخاطئة.

وسبب النفور من الطاعة أنَ القلوب مجبولة على بغض من أساء اليها، وبطبيعة الحال سترى النفس أن ما ألمَ بها من الألم كان بسبب طلب الآخرة فتنفر النفس من الآخرة ومن طلبها.

التغلب على الشوق للدنيا برفق وحكمة

وسبب طريقة الشرع الحنيف أنّ النفس حين طلب الشهوة الحلال تفكر بالشهوة وبعد الانتهاء تفكر بالعاقبة، أمّا من زاد شوقه للذة فلن يفكر إلا بها ولن يلتفت للعاقبة

فإذا أعطيت النفس شيئاً من الدنيا الحلال ينكسر شوقها وحاجتها فلا تعمى بصيرتها عن العاقبة، وذاك أن صاحب الحاجة أعمى فكيف اذا كانت الحاجة شهوة، فحين الشهوة الحرام ستبقى تنظر في العاقبة وهذا يجعلك تتكل على الله تعالى فتترك المعصية، فحينما تضعف الشهوة لإعطائها اللذة الحلال لا تجر النفس إلى معصية الله تعالى، ويبقى الشوق

للأخرة فالعقل يدعو الى الله والقلب يدعو الى الله تعالى لولا غلبة الشهوة، وهي هنا ضعيفة فتصبح الغلبة للعقل في طاعة الله تعالى، فلا مانع حينئذٍ من الإتيان بالعبادات من خلال الشوق بحكمة.

ولكن لو ترك الدنيا دفعيا ودخل في التقشف وسعى في الأذكار والعبادة بشدة فبعد فترة قصيرة ستشعر النفس بالفراغ، لأن عبادتها أصبحت عادة لا شوق فيها فيحدث عنده فراغ، والفراغ يجره نحو الفضول والنفس تميل للشهوات فيستغلها إبليس بالوسوسة بمقدمات الشهوة فإذا شعر باللذة ولو قليلا اصطاده إبليس وجره نحو الدنيا.

هذا وغالب من يسلك طريق الصوفية ولا يمل منه يكون استمراره فيه لغرض دنيوي من نوع آخر وهو حصول اللذة النفسية عبر الكشف وما شابهه، اما من يتبع محمداً ﷺ فلا غرض له في الكشف ونحوه، وغرضه الوحيد العبودية لله تعالى.

اتباع آثار محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم

فسألته: ماذا يصنع من انزلق الى طريقة الصوفية؟

فأجاب: عليه أن يعود الى الطريقة الشرعية ويترك طريقة الصوفية، فلا يعذب نفسه بأنه ترك بعض العبادات وأخذ ببعض المباحات، فإذا علم السبب ترك اللوم وشرع بالعمل واستراحت نفسه، فهو يطيع الله ولا تنفر نفسه من الطاعة ولا تجره نفسه بشدة للدنيا لأنه يطفئ نارها بالمباحات والمشروعات ومن هنا الرواية عن سليم بن قيس قال: «سمعت عليّاً صلوات الله عليه يقول وأتاه رجلٌ فقال له: ما أدنى ما يكون به العبد مؤمناً وأدنى ما يكون به العبد كافراً وأدنى ما يكون به العبد ضالاً؟

فقال له : « سألت فافهم الجواب أمّا أدنى ما يكون به العبد مؤمناً أن يعرّفه الله تبارك وتعالى نفسه فيقرّ له بالطاعة ، ويعرّفه نبيّه (صلى الله عليه وآله) فيقرّ له بالطّاعة، ويعرّفه أمامه وحجّته في أرضه وشاهده على خلقه فيقرّ له

بالطاعة، قلت له : يا أمير المؤمنين وإن جهل جميع الأشياء إلاّ ما وصفت ؟ قال : نعم إذا أُمر أطاع وإذا نهي انتهى ، وأدنى ما يكون به العبد كافراً من زعم أنَّ شيئاً نهى الله عنه أنَّ الله أمر به ونصبه ديناً يتولّى عليه ويزعم أنّه يعبد الّذي أمره به وإنّما يعبد الشيطان، وأدنى ما يكون به العبد ضالاً أن لا يعرف حجّة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الّذي أمر الله عزّ وجلَّ بطاعته وفرض ولايته، قلت: يا أمير المؤمنين صفهم لي فقال: الّذين قرنهم الله عزَّ وجلَّ بنفسه ونبيّه فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرَّسول وأُولى الأمر منكم﴾.

قلت: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك أوضح لي فقال: الّذين قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في آخر خطبته يوم قبضه الله عزَّ وجلَّ إليه: إنّي قد تركت فيكم أمرين لن تضلّوا بعدي ما إن تمسّكتم بهما : كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنَّ اللّطيف الخبير قد عهد إليَّ أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض كهاتين وجمع بين مسبّحتيه ولا أقول: كهاتين وجمع

بين المسبّحة والوسطى فتسبق إحداهما الأُخرى، فتمسّكوا بها لا تزلّوا ولا تضلّوا ولا تقدّموهم فتضلّوا»[١].

ولما أكمل الشيخ الحديث طرق الباب ودخل عدد من الرجال مباركين للشيخ بالزيارة، ثم استأذنت للعودة الى منزلي فشايعني الشيخ الى باب الدار وقال لي روي عن ابي جعفر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه قال: «قال الله تبارك وتعالى: لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فأنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم - أعمارهم - في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تدركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت»[٢]، ثم حملني سلاما الى والدي وانصرفت.

١ـ الكافي: ج٢ ص٤١٤.

٢ـ الكافي: ج٢ ص٧١.

الفهرس

نفحات روحية ٥

رحمته وسعت كل شيء ٦

الغفلة عن النعم مع ظهورها ٧

العبادة وكل خير بتوفيق من الله ٩

لا حول ولا قوة الا بالله ١٠

أسباب عدم ثبات الحالة الروحية ١١

العبودية حالة قلبية تترشح على الجوارح ١٢

من تواضع لله رفعه الله ١٣

الشعور بالعظمة الإلهية ١٤

هل الدنيا دار راحة؟! ١٧

التعلق بالأحلام ١٩

لا يكن همك تحصيل الكرامات ٢١

العبودية وطلب الكمال ٢٣
العبودية الحقيقية ٢٨
اغتنام فترة الشباب ٣١
المعرفة فطرية كامنة في النفس..... ٣٣
نماذج من الطغيان ٤٠
طريق العبودية هو الصراط المستقيم..... ٤١
تأثر الأفكار بالمشاعر..... ٤٢
عبودية النبي إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لله عز وجل ٤٦
أسيرُ نفسه أعمى البصيرة..... ٤٩
الأحلام، كما يبنيها المجتمع..... ٥٠
آثار الأحلام ٥٢
الدنيا دار بلاء ٥٢
لا يشغلك خوف الألم ٥٤

قسوة القلب وعدم الرضا بقضاء الله ٥٥

قد يؤذينا الناس بغير حق ٥٨

الشفقة على الناس ٦٠

النظر الى نعم الله واحسانه ٦٢

انشغال الانسان بحاجاته يُعمي ويصم ٦٤

الشعور الحقيقي بأن المنعم هو الله ٦٦

الآثار السلبية للتعلق بالشهوات ٦٨

هل تركت النفس أحلامها؟ ٦٩

ضعف الارادة ٧٥

بث الارادة ٧٦

هكذا يكون الحر ٧٧

إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ٨٠

نماذج من الدعاء ٨١

ثبات الامور يحتاج الى جهاد وصبر ٨٦
الشكر لتوفيق الله بالابتعاد عن الاحلام ٨٧
وظيفة العبودية ٨٨
الشعور بقدرة الله ٩١
العجب بالعمل ٩٣
هل المال والجاه هما معيار الاكرام؟!! ٩٣
العقل والقلب عندما يتظافرا ١٠٠
الطاعة على نحو العبادة (الطاعة المطلقة) ١٠٣
الصوفية وتمسكهم بمشايخهم ١٠٤
تفكُّر ساعة ١٠٥
الحب والخوف ١٠٦
النظر الى الألم ١٠٨
كثيراً ما يكون منشأ الشكوك نفسياً ١٠٩
اجعل العبودية همك الوحيد ١١٠

وما يعفو عنه اكثر ١١٢

من آثار حب الدنيا ١١٦

العادات قاهرات ١١٩

انفتاح البصيرة ١٢٠

عندما ينسى الانسان الدنيا ١٢٣

التعاطي مع النفس ١٢٥

تقسيم الساعات ١٢٧

إن هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق ١٣١

من شطحات الصوفية ١٣٢

التغلب على الشوق للدنيا برفق وحكمة ١٣٤

اتباع آثار محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم ١٣٦

الفهرس ١٣٩